المكتسبة التي تتسع جيلاً بعد جيل، وهذا لا ينتقص من صدق الملاحظات العلمية التي ترقى إلى مرتبة الحقيقة أو القاعدة أو القانون.

٦ ـ أما القول «بأنه لا يجوز رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله بمعطيات العلوم المكتسبة» فهو كذلك كلام بعيد عن الحق، فقد حرص كثير من علماء المسلمين على ألا يتم تفسير الإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم إلا في ضوء الحقائق العلمية المؤكدة والقوانين والقواعد الثابتة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تخديمهما في فهم ذلك، إلا في حالة الآيات القرآنية الكريمة، المتعلقة بالقضايا التي لا تخضع خضوعاً مباشراً لحس الإنسان وإدراكه من **مثل قضايا الخلق بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، وفي قضايا الإفناء والبعث.** وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظاً مبالغاً فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم في فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية، ولا يجدون حرجاً في ذلك العمل الذي يقومون به في غيبة نص ثابت مأثور، فإننا نرى أنه لا حرج على الإطلاق في فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة؛ وذلك لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً خالصاً ـ بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص، ومحدودية القدرة ـ، ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون على نظرية ما، لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة الحقيقة أو القاعدة أو القانون، ولا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوى أبداً، فمن أمور الكون العديدة ما لا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبداً، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين على بلورة نظرية من النظريات، ويبقى العلم التجريبي مسلماً بأنه لا يستطيع أن يتعدى تلك المرحلة في ذلك المجال بعينه أبداً.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها النظريات المفسرة لكل من أصل الكون وأصل الحياة وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد من النظريات المقبولة، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون في يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية على أخرى، أو تطوير لنظرية عن أخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادعاء بالوصول إلى حقيقة راسخة أو قانون قطعي، أو قاعدة ثابتة لذلك أبداً. فتكثر النظريات المفسرة لظواهر محددة، وتختلف باختلاف خلفية واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله الخالق في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله ـ تعالى ـ أو في حديث رسول الله ﷺ، وإن لم يستطع العلم المكتسب أن يقوم بذلك. فهذه مجالات إذا دخلها الإنسان بغير هداية ربانية فإنه يضل فيها ضلالاً بعيداً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فعلى الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرئون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج في عمليات قابلة للتكرار والإعادة؛ إلا أن من أمور الكون ما لا يمكن إخضاعه لذلك المنهج. وعلى ذلك فإن هناك قضايا كثيرة لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبداً بغير هداية ربانية. ولولا الثبات في سنن الله التي تحكم الكون وما فيه ما تمكن الإنسان من اكتشاف تلك السنن أبداً.. ولا يظن عاقل أن البشر مطالبون بما هو فوق طاقاتهم، خاصة في فهم كتاب الله الذي أنزل لهم، ويُسِّر لتذكرهم؛ لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. ففي الوقت الذي يقرر القرآن الكريم أن الله لم يُشْهِدْ أياً من الجن والإنس خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم، نجده في آيات أخر يأمرهم بالنظر في كيفية بداية الخلق، وهي من أصعب قضايا العلوم الكونية قاطبة؛ إذ يقول ـ عز من قائل ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ

﴿ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠].

وفي ذلك ما يشير إلى أن بالأرض سجلاً حافلاً بالحقائق التي يمكن أن يُسْتَدَلَّ منها على كيفية بدء الخلق الأول، وعلى إمكانية النشأة الآخرة، والأمر في الآية من الله ـ تعالى ـ إلى رسوله الكريم ليدعو الناس كافة إلى السير في الأرض، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول، وهي قضية تقع من العلوم الكونية في الصميم إن لم تكن تشكل أصعب قضية علمية عالجها الإنسان، وإن لم يستطيع تجاوز مرحلة التنظير فيها.

وقضايا الخلق وإفنائه وإعادة خلقه لها في كتاب الله ـ تعالى ـ وفي سنة رسوله ﷺ من الإشارات اللطيفة ما يُمَكِّن الإنسان المسلم من تفضيل نظرية من النظريات والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود ذكر لها في كتاب الله ـ تعالى ـ أو في سنة رسوله ﷺ، ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم وليس العكس.

ولما كانت العلوم المكتسبة لم تصل بعد إلى الحقيقة في كثير من الأمور فإني أرى ضرورة فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولاً، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة المقبولة، حتى لو أدى التطور العلمي في المستقبل إلى تغيير تلك النظرية، أو تطويرها أو تعديلها؛ وذلك لأن التفسير ـ كما سبق وأن أشرت ـ يبقى اجتهاداً بشرياً خالصاً من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية، إن أصاب فيه المرء فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، ويبقى هذا الاجتهاد قابلاً للزيادة والنقصان، وللنقد والتعديل والتبديل باستمرار.

وإن في كون القرآن الكريم بياناً من الله ـ تعالى ـ إلى الناس كافة، يفرض على المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموه ـ كل في حقل تخصصه ـ

على ضوء ما تجمع لكل منهم من معارف، وذلك بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة؛ فالقرآن الكريم نزل للناس ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم إن تفسير آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم التجريبية لا يشكل احتجاجاً على القرآن الكريم بالمعارف المكتسبة، ولا انتصاراً له بها فالقرآن الكريم هو ـ بالقطع ـ فوق ذلك كله، ولأن التفسير على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم في إطار لم يكن متوفراً للناس من قبل. ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله ـ سواء أصابت أم أخطأت تلك المحاولات ـ وإلا لما حفل ذلك الكتاب الكريم بهذا الحشد الهائل من الآيات التي تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر في مختلف جنبات الكون بمنهج علمي استقرائي دقيق؛ وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد الذي يمكن حواس الإنسان المتأمل لها من إدراك أسرارها ـ على الرغم من حدود قدرات تلك الحواس ـ، وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التي يزخر بها القرآن الكريم، ويمن علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وهو صاحب الفضل والمنة، بهذا التسخير الذي هو من أعظم نعم الله على عباده.

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل في الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حَدَثٍ وقع في الكون، وهي أدلة مدونة في صفحة السماء، وفي صخور الأرض بصورة يمكن لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمي الاستقرائي الصحيح، فما من انفجار حدث في الكون إلا وهو مدون، وما من نجم توهج أو خمد إلا وله أثر، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهي مسجلة في صخور القشرة الأرضية، وما من تغير في تركيب الغلاف الغازي أو المائي للأرض إلا وهو مدون في صخورها، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها، ولا تغير في المناخ إلا وهو مدون كذلك في صخور الأرض، وما من هبوط نيزك من النيازك على الأرض إلا وهو مسجل في صخورها.

ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل في الكون واستخلاص سنن الله فيه، وتوظيف تلك السنن في عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف فيها هي دعوة للناس في كل زمان ومكان، وهي دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل أبداً، انطلاقاً من الحقيقة الواقعة أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقى مهيمناً عليها، ومحيطاً بها؛ لأنه كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وقدرته وحكمته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره، وإثبات جوانب الإعجاز فيه، لا تنتقص من جلال الربوبية الذي يتلألأ بين كلمات هذا البيان الرباني الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتاً على إيمانهم، وتشرح صدور الباحثين عن الحق وتهديهم إليه وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين. وإذا أخطأ المفسر في فهم دلالة آية من آيات القرآن الكريم فإن هذا الخطأ يعود على المفسر نفسه ولا ينسحب على جلال كلام الله أبداً. والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ. فليحاول العلماء التجريبيون تفسير الآيات الكونية بما تجمع لديهم من معارف؛ لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهماً كاملاً، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها في حدود اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ بل لا بد من توظيف المعارف العلمية المتاحة من أجل تحقيق ذلك.

٦ ـ إن الاحتجاج بأن العلوم التجريبية ـ في ظل الحضارة المادية المعاصرة ـ تنطلق في معظمها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فمردُّ ذلك كله بعيد عن طبيعة العلوم الكونية، وإنما يرجع إلى المواقف الخاطئة التي أفرزتها الحضارة المادية المعاصرة، والتي تحاول فرضها على كل استنتاج علمي، وعلى كل رؤية شاملة للكون والحياة في ظل قفزات هائلة

في مجال العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، وقد تخلف المسلمون مؤخراً في كثير من مجالاتها مما أدى إلى انتقال القيادة الفكرية في هذه المجالات على وجه الخصوص إلى أمم سبق للعلماء فيها أن عانوا معاناة شديدة من تسلط الكنيسة عليهم، واضطهادها لهم، ورفضها للمنهج العلمي ولكل معطياته، ووقوفها حجر عثرة في وجه أي تقدم علمي، كما حدث في أوروبا في أوائل عصر النهضة. وظل الحال كذلك حتى انتصرت حقائق العلم فانطلق العلماء الغربيون من منطلق العداوة للكنيسة أولاً ثم لقضية الإيمان بالتبعية، وداروا بالعلوم الكونية ومعطياتها في إطارها المادي فقط، وبرعوا في ذلك براعة ملحوظة، ولكنهم ضلوا السبيل وتنكبوه حينما حبسوا أنفسهم في إطار المادة وحدها، ولم يتمكنوا من إدراك ما فوقها، وحرموا أنفسهم من مجرد التفكير فيه، فأصبحت الغالبية العظمى من العلوم تكتب من مفهوم مادي صرف. وانتقلت عدوى ذلك إلى عالمنا المسلم أثناء مرحلة اللهث وراء اللحاق بالركب التي نعيشها منذ بدايات القرن العشرين، وما صاحب ذلك من مركبات الشعور بالنقص، مع دسّ الأعداء، وانبهار البلهاء بما حققته الحضارة المادية المعاصرة من انتصارات في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، وما وصلت إليه من أسباب القوة المادية والغلبة العسكرية، وما حملته معها حركة الترجمة من غث وسمين، فأصبحت العلوم تكتب اليوم في عالمنا المعاصر من نفس المنطلق؛ لأنها عادة ما تدرس وتكتب وتنشر بلغات أجنبية على نفس النمط الذي أرست قواعده الحضارة المادية المعاصرة. وحتى ما ينشر منها باللغة العربية، وبغيرها من اللغات المحلية في مختلف دول العالم الإسلامي المعاصر، لا يكاد يخرج في مجموعه عن كونه ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للفكر الغريب الوافد، بكل ما فيه من تعارض واضح أحياناً مع نصوص الدين. والخطأ ليس خطأ المعطيات الكلية للعلوم المكتسبة، ولكنه يتجسد في صياغتها بأيد كافرة أو مشركة، ضالة عن الحق وركائزه، وعن الدين الصحيح وأصوله.

وهنا تقتضي الأمانة إثبات أن ذلك الموقف غريب على العلم وحقائقه، ومن هنا أيضاً **كان من واجب المسلمين إعادة التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة كلها، أي إعادة كتابة العلوم وغيرها من المعارف المكتسبة من منطلق إسلامي صحيح**، خاصة وأن المعطيات الكلية للعلوم ـ بعد وصولها إلى قدر من التكامل في هذا العصر ـ أصبحت من أقوى الأدلة على وجود الله، وعلى تفرده بالألوهية والربوبية والوحدانية فوق جميع خلقه، ومن أنصع الشواهد على حقيقة الخلق، وحتمية البعث، وضرورة الحساب. وأن العلوم الكونية كانت ولا تزال النافذة الرئيسة التي تتصل منها الحضارة المعاصرة بالفطرة الربانية، وأن المنهج العلمي ونجاحه في الكشف عن عدد من حقائق هذا الكون متوقف على اتساق تلك الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبات.

٧ ـ كذلك فإن القول «بأن المعطيات الكلية للعلوم التجريبية ـ كما تصاغ في الحضارة المادية المعاصرة ـ قد تتباين مع الأصول الإسلامية الثابتة»، هو قول على إطلاقه غير صحيح؛ لأنه إذا جاز ذلك في بعض الاستنتاجات الجزئية الخاطئة، أو في بعض الأوقات (كما كان الحال في مطلع القرن العشرين. والمعرفة بالكون جزئية متناثرة، ساذجة بسيطة، أو في الجزء المتوسط منه عندما أدت المبالغة في التخصص إلى حصر العلماء في دوائر ضيقة للغاية حجبت عنهم الرؤية الكلية لمعطيات العلوم) فإنه لا يجوز اليوم، وقد بلغت المعارف بأشياء هذا الكون حداً لم تبلغه البشرية من قبل، وأصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد ضرورة الإيمان بالخالق البارئ المصور الذي ليس كمثله شيء، وضرورة التسليم بالغيب وبالوحي وبالحشر وبالبعث وبالحساب.

ومن المعطيات الكلية للعلوم الكونية المعاصرة ما يمكن إيجازه فيما يلي:

١ ـ إن هذا الكون الذي نحيا فيه متناه في أبعاده، مذهل في دقة بنائه، وإحكام ترابطه وانتظام حركاته.

٢ - إن هذا الكون مبني على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته.

٣ - إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا يستطيع العلم المكتسب إدراكها، وإن أمكنه قياس معدلات هذا التوسع.

٤ - إن هذا الكون - على قدمه - مستحدث مخلوق، كانت له في الماضي السحيق بداية يحاول العلم التجريبي قياسها، ووصل فيها إلى دلالات تكاد تكون ثابتة إذا استبعدنا الأخطاء التجريبية.

٥ - إن هذا الكون عارض، فلا بد من أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية تشير إليها كل الظواهر الكونية من حولنا، وإن عجزنا عن تحديد وقتها الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

٦ - إن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته.

٧ - إن هذا الكون المتناهي الأبعاد، الدائم الاتساع، المحكم البناء، الدقيق الحركة والنظام، والذي يدور كل ما فيه في مدارات محددة ويجري بسرعات مذهلة متفاوتة وثابتة، لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة.

هذه المعطيات الكلية للعلوم تفضي إلى الحقائق المنطقية التالية:

١ - إذا كان هذا الكون الحادث لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه أو أن يكون قد وجد بمحض المصادفة، فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة وغير ذلك من صفات الكمال والتنزيه ما لا يتوفر لشيء من خلقه، بل لا مهرب من الاعتراف بأن يكون لهذا الخالق العظيم من الصفات ما يغاير صفات المخلوقات جميعاً فلا تحده حدود المكان والزمان، ولا قوالب المادة والطاقة ولا بد من أن تكون مرجعية الكون كله إليه، وبالتالي فلا بد من أن يكون خارج حدود الكون، وأن يرجع أمر الكون كله إليه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]،

ولا ينسحب عليه ما يحكم خلقه من سنن وقوانين؛ لأنه ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

٢ ـ وهذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة على إزالته وإفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء، وفي ذلك يقول ﷻ:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ويقول عز من قائل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

٣ ـ كذلك فإن الوحدة في هذا الكون تشير إلى وحدانية هذا الخالق العظيم: وحدة بناء كل من الذرة، والخلية الحية، والمجموعة الشمسية، والمجرة، وغيرها من تجمعات أجرام السماء، ووحدة تآصل العناصر كلها وردها إلى أبسطها وهو غاز الأيدروجين، ووحدة تواصل كل صور الطاقة، وتواصل المادة والطاقة، وتواصل كل من المكان والزمان؛ هذا التواصل وتلك الوحدة التي يميزها التنوع في أزواج، وتلك الزوجية التي تنتظم كل صور المخلوقات من الجمادات والأحياء ـ من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان ـ تشهد بتفرد الخالق البارئ المصور بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، واستعلاء هذا الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد فوق خلقه بمقام الألوهية الذي لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه على سلطانه منازع ولا يشبهه من خلقه شيء.

٤ ـ وبالإضافة إلى ذلك فإن العلوم التجريبية في تعاملها مع المدرك المحسوس فقط، قد استطاعت أن تتوصل إلى أن بالكون غيباً قد لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه، ولولا ذلك الغيب ما استمرت تلك العلوم في التطور والنماء؛ لأن أكبر الاكتشافات العلمية قد تم نتيجة للبحث الدءوب عن هذا الغيب المرحلي، أما الغيوب المطلقة فقد استأثر بها علم الله.

٥ - كذلك تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء سراً لا نعرف كنهه؛ لأننا نعلم مكونات الخلية الحية، والتركيب المادي لجسد الإنسان، ومع ذلك لم يستطع هذا العلم أن يصنع لنا خلية حية واحدة، أو أن يوجد لنا إنساناً عن غير الطريق الفطري لإيجاده. وحتى الاستنساخ الذي هو عبث بالخلق لا يخرج عن ذلك في شيء.

٦ - إن النظر في أي من زوايا الكون ليؤكد حاجته - بمن فيه وما فيه - إلى رعاية خالقه العظيم في كل لحظة من لحظات وجوده.

٧ - إن العلوم الكونية إذ تقدر أن الكون والإنسان في شكليهما الحاليين ليسا أبديين، فإنها - وعلى غير قصد منها - لتؤكد حقيقة الآخرة، بل حتميتها. والموت يتراءى في مختلف جنبات الكون في كل لحظة من لحظات وجوده شاملاً الإنسان والحيوان والنبات والجماد بما في ذلك من أجرام السماء على تباين هيئاتها. وتكفي في ذلك الإشارة إلى ما أثبتته الدراسة من أن الشمس تفقد من كتلتها بالإشعاع على هيئة طاقة ما يقدر بحوالي ٤,٦ مليون طن من المادة في كل ثانية، وأنها إذ تستمر في ذلك فلا بد من أن يأتي الوقت الذي تخبو فيه جذوتها، وينطفئ أوارها، وتنتهي الحياة على الأرض قبل ذلك؛ لاعتماد الأرض في ممارسة أنشطتها الحيوية على القدر المقنن الذي يصلها من أشعة الشمس، وأن الطاقة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل حرارة بطريقة مستمرة في محاولة لتساوي درجات حرارة الأجرام المختلفة في الكون، ولابد أن تنتهي بذلك أو قبله كل صور الحياة المعروفة لنا. وليس معنى ذلك أنه يمكن معرفة متى تكون نهاية هذا الوجود؛ لأن الآخرة قرار إلٰهي لا يرتبط بسنن الدنيا، وإن أبقى الله - تعالى - لنا في الدنيا من الظواهر والسنن ما يؤكد إمكانية وقوع الآخرة، بل حتميتها انصياعاً للأمر الإلٰهي ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

والقرآن الكريم يؤكد لنا فيه ربنا - تبارك وتعالى - فجائية وقوع الآخرة بقوله

العزيز مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمداً ﷺ فيقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن الإنسان الذي يحوي جسده ـ في المتوسط ـ ألف مليون مليون خلية يفقد منها في كل ثانية ما يقدر بحوالي ١٢٥ مليون خلية، تموت ويتخلق غيرها بحيث تتبدل جميع خلايا جسد الفرد من بني البشر مرة كل عشر سنوات تقريباً، فيما عدا الخلايا العصبية التي إذا ماتت لا تتجدد.

وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن انتقال الإلكترون من مدار إلى آخر حول نواة الذرة يتم بسرعة مذهلة دفعت بعدد من العلماء المعاصرين إلى الاعتقاد بأنه فناء في مدار، وخلق جديد في مدار آخر.

كما تكفي الإشارة إلى ظاهرة اتساع الكون عن طريق تباعد المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة تقترب من ثلاثة أرباع سرعة الضوء المقدر بحوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، وتخلق المادة في المسافات الجديدة الناتجة عن هذا التباعد المستمر إلى نهاية لا يعلمها إلا الله تعالى، وبطريقة لا يعلمها إلا هو ـ ﷻ ـ. وتباطؤ هذا التباعد مع الزمن يشير إلى حتمية تغلب الجاذبية على عملية الدفع إلى الخارج؛ مما يؤدي إلى إعادة جمع مادة الكون ومختلف صور الطاقة فيه وكل المكان والزمان في جرم واحد ذي كثافة بالغة يشبه الجرم الأول الذي بدأ منه خلق الكون، وهذا سوف يؤدي إلى انفجاره على هيئة شبيهة بالانفجار الأول الذي تم به خلق الكون فيتحول هذا الجرم الثاني إلى غلالة من دخان كما تحول الجرم الأول، وتتخلق من هذا الدخان أرض غير الأرض الحالية وسمٰوات غير السمٰوات المحيطة بها كما وعد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا

فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى فناء مختلف صور المادة والطاقة في داخل الثقوب السود إلى نهاية لا يعلمها إلا الله تعالى. كما يكفي أن نشير إلى حقيقة أن الذرات في جميع الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية تترتب ترتيباً يسارياً حول ذرة الكربون، في أجساد كافة الكائنات الحية على اختلاف مراتبها، فإذا ما مات الكائن الحي أعادت تلك الذرات ترتيب نفسها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة محددة يمكن بواسطتها تحديد لحظة وفاة الكائن الحي إذا بقيت من جسده بقية بعد مماته. ويتعجب العلماء من القدرة التي مكنت الذرات من تلك الحركات المنضبطة بعد وفاة صاحبها وتحلل جسده!!

فهل يمكن لعاقل بعد ذلك أن يتصور أن العلوم الكونية ومعطياتها ـ في أزهى عصور ازدهارها ـ تتصادم مع قضية الإيمان بالله؟ وهذه هي معطياتها الكلية، وهي في جملتها تكاد تتطابق مع تعاليم السماء، **وفي ذلك كتب المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ/ محمد فريد وجدي ـ يرحمه الله ـ في خاتمة كتابه المعنون «المستقبل للإسلام»** ما نصه: «إن كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمي، هي تقرب إلى ديننا الفطري، حتى ينتهى الأمر إلى الإقرار الإجماعي بأنه الدين الحق». ثم يضيف: «نعم إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد وإمعانه في النقد والتمحيص، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام، بخطوات متزنة ثابتة، لا توجد قوة في الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية».

وقد بدأت بوادر هذا التحول الفكري تظهر جلية اليوم في مختلف جنبات الأرض، بإقبال أعداد كبيرة من العلماء والمتخصصين وكبار المثقفين والمفكرين على الإسلام، إقبالاً لم تعرف له الإنسانية مثيلاً من قبل، وأعداد

هؤلاء العلماء الذين توصلوا إلى الإيمان بالله عن طريق النظر المباشر في الكون، واستدلوا على صدق خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بالوقوف على عدد من الإشارات العلمية البارقة الصادقة في كتاب الله تعالى، أو في سنة رسوله ﷺ هم في تزايد مستمر، وهذا واحد منهم هو «موريس بوكاي» الطبيب والباحث الفرنسي يسجل في كتابه «الإنجيل والقرآن والعلم» ما نصه: «لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير ـ إلى هذا الحد ـ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص دوِّن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً».

٨ ـ إن فهم الإشارات الكونية في كتاب الله، على ضوء ما تجمع للبشرية اليوم من معارف، وتقديمها للعالم كواحد من الأدلة العديدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله ـ تعالى ـ الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي حفظ بحفظ الله، بنفس اللغة التي أوحي بها ـ اللغة العربية ـ، بدقائق حروفه وكلماته وآياته وسوره، يعتبر فتحاً جديداً للإسلام، وإنقاذاً للبشرية من الهاوية التي تتردى فيها اليوم بسبب تقدمها العلمي والتقني المذهل، وتضاؤل روح الإيمان بالله، وانعدام الخشية من عذابه في نفوس العدد الأكبر من الناس، خاصة في أكثر المجتمعات البشرية المعاصرة أخذاً بأسباب التقدم العلمي والتقني، فأغلب المجتمعات البشرية في الدول غير المسلمة تعاني اليوم من انفراط عقد الأسرة، والتقنين للممارسات الجنسية بدون أدنى رباط، فكثر حمل المراهقات، وكثر أبناء الزنا، وعمت الأسر ذات العائل الواحد، وتفشت الأمراض والأوباء والعلل مما لم يكن معروفاً من قبل، وقننت الحكومات في الكثير من دول العالم اليوم التشريعات للعلاقات الشاذة، وصرحت بتبني الأطفال وتنشئتهم في وسط الشواذ ـ وهي عملية مدمرة للفطرة الإنسانية ـ فكثرت الأزمات النفسية وأمراضها، وتضاعفت معدلات كل من الإدمان

والجريمة والانتحار، وملئت أكثر المجتمعات البشرية ثراء وتطوراً مادياً بأخطر مشاكل المجتمعات الإنسانية تعقيداً على الإطلاق..!!!

ومن هؤلاء الذين لا يعرفون لهم أباً، والذين خرجوا إلى الحياة بطرق غير مشروعة، ونشأوا في بيئات فاسدة، وبين سلوكيات منحطة وضيعة من يمكن أن يصل إلى مقام السلطة في دول تملك من تقنيات ووسائل الغلبة المادية، ومن مختلف أسلحة الدمار الشامل ما يمكن أن يعينه على البطش بالخلق، وإفشاء الظلم، وتدمير الحياة على الأرض، وإفساد بيئاتها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها..!!! ولا يجد من دين أو خلق أو منطق أي رادع يمكن أن يرده عن ذلك.

وأغلب وسائل الإعلام قد وقعت اليوم في أيدي غلاة اليهود المتعصبين لأسطورة «شعب الله المختار»، في مؤامرة خسيسة على الإنسانية ـ وهم بهذا أشد الناس عداوة للذين آمنوا بصفة خاصة وللإنسان غير اليهودي ـ بصفة عامة ـ فوظفوا كافة تلك الوسائل الإعلامية في تدمير البقية الباقية من عقائد وأخلاقيات وسلوكيات المجتمعات الإنسانية، وفي تشويه صورة الإسلام في أذهان الناس؛ وذلك لأنه مما يسوؤهم أن يروا الإسلام ينتشر في مجتمعاتهم في الوقت الذي يتصورون أنهم قد أحاطوا بالإسلام والمسلمين إحاطة كاملة. وعلى الرغم من كل ذلك فإنه قمم الفكر والعلم والرأي؛ تقبل على الإسلام اليوم في الغرب والشرق لأنهم يرون فيه المخرج الوحيد من الوحل النتن الذي غاصت فيه مجتمعاتهم.

ووسيلتنا في تحسين صورة الإسلام في العالم هي حسن الدعوة إليه بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي. وخير ما نقدمه في ذلك المضمار مما يتناسب مع طبيعة العصر ولغته هو (الإعجاز العلمي في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة)؛ لأننا نعيش في زمن أدار فيه غالبية الناس ظهورهم للدين، وأصبحت قضايا الغيب المطلق (من حساب في القبر، وبعث بعد الموت، وعرض أكبر أمام الله الخالق، وخلود في حياة

قادمة: إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً)، وغيرها من قضايا الدين لا تحرك فيهم ساكناً، ولكنهم في نفس الوقت قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة. فإذا أشرنا إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون قبل أن يصل الإنسان إلى شيء منها بالمئات العديدة من السنين ـ وهو الكتاب الذي أنزل على نبي أمي ﷺ، في أمة كان غالبيتها الساحقة من الأميين ـ من قبل ألف وأربعمائة سنة فإن ذلك سوف يحرك عقولهم وقلوبهم، وسوف يحضهم على قراءة كتاب الله الذي ما اطلع عليه عاقل ـ حتى في ترجمة لمعانيه ـ إلا وشهد له بأنه لا يمكن أن يكون كلام أحد غير الله الخالق ﷻ.

وفي ذلك تقليل من حجم الكراهية الشديدة التي غرستها وسائل الإعلام الصهيونية/ الصليبية في قلوب الملايين من الأفراد للإسلام والمسلمين، وفيه دعوة مستنيرة إلى دين الله، وما أحوجنا للدعوة لهذا الدين الخاتم في زمن التحدي بالعولمة الذي نعيشه، والذي يتهدد كافة شعوب الأرض بالذوبان في بوتقة الحضارة المادية الجارفة..!! وفي زمن الاستعلاء الأنجلو/ أمريكي/ الإسرائيلي اللعين الذي يتهدد منطقتنا بأكملها بالدمار في ظل تفكك القيادات العربية والمسلمة، وتشرذمهم، وتخاذلهم، وانصياعهم للأوامر المعادية لشعوبهم ولدينهم ولأخلاقهم وقيمهم، وفقدهم الثقة بالله، وخوفهم المزعوم من الشبح الأمريكي اللعين الذي لا يصمد أبداً أمام قدرة رب العالمين. وإسلامنا العظيم يعلمنا أنه من معاني (لا إله إلا الله) أنه لا سلطان في هذا الوجود لغير الله، وأننا لو رجعنا إلى ربنا بصدق وتمسكنا بإسلامنا في تجرد وإخلاص لنصرنا الله ـ تعالى ـ كما نصر أسلافنا العظام من قبل. ومن أهم وسائلنا في ذلك حسن الدعوة إلى دين الله باللغة التي يفهمها أهل عصرنا، وهي لغة العلم.

ولا يمكن أن يصدنا عن ذلك دعوى أن عدداً من المفسرين السابقين الذين تعرضوا لتفسير بعض الآيات الكونية في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل تلك

الآيات من المعاني ما لا تحتمله؛ وذلك بسبب نقص في وفرة المعلومات العلمية أو جهل بها. وكما سبق وأن أوضحنا فإن التفسير لآيات القرآن الكريم هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة تلك الآيات إن أصاب فيها المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، والمُعَوَّل عليه في ذلك هو النية، وأن الخطأ في التفسير لا ينال من جلال القرآن الكريم، ولكنه ينعكس على المفسر؛ خاصة وأن الذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، والذين فسروا بالتاريخ أصابوا وأخطأوا، ولم ينل ذلك من قدسية القرآن الكريم ومكانته في قلوب وعقول المؤمنين.

أما اليوم وقد توافر للإنسان من المعرفة بحقائق الكون وسننه ما لم يتوافر لجيل من البشر من قبل، فإن توظيف ذلك الكم الهائل من المعلومات الصحيحة من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية، وإثبات سبقها التاريخي لكافة البشر يعتبر ضرورة إسلامية لتثبيت إيمان المؤمنين، ولدعوة الضالين من الكفار والمشركين والذين سوف يسألنا ربنا ﷻ عن تبليغهم بهذا الدين، ودعوتهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وباللغة التي يفهمونها.

والأخطاء التي وقع فيها عدد من المفسرين الذين تعرضوا للآيات الكونية في كتاب الله، فتكلفوا في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحتمله في تعسف واضح وتكلف جلي، يحملونه هم ولا تحتمله آيات الكتاب المبين؛ لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً منسوباً لصاحبه بكل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال، وإن كان عدد منهم قد جاوز الصواب، فإن أعداداً أوفر قد وفقت في ذلك أيما توفيق.

ولم تكن أخطاء بعض المفسرين محصورة في شرح دلالة بعض الإشارات الكونية فقط، فهنالك عدد من كتب التفسير التي استشهدت بالإسرائيليات الموضوعة، أو امتلأت بالعصبيات المذهبية الضيقة، وغير ذلك مما لا يقبله العقل القويم، ولا يرضاه الصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه المكرمين والتابعين، ولا يرتضيه المنطق اللغوي السليم؛ فالمعتزلة على

سبيل المثال ـ لا الحصر ـ قد حاولوا في تفاسيرهم إخضاع الآيات لمبادئهم في العدل والتوحيد وحرية الإرادة والوعد والوعيد وإنكار الرؤية وغيرها، وتعسفوا في ذلك أيما تعسف. والشيعة ـ على اختلاف فرقهم ـ قد دفعتهم المغالاة في حب آل البيت إلى التطرف في تأويل بعض الآيات القرآنية تأويلاً لا يحتمله ظاهر الآيات، ولا السياق القرآني ولا القرائن المنطقية المختلفة. وكذلك المُتصوِّفة والإشاريون؛ فهم على الرغم من تسليمهم بالمأثور من التفسير، وقبولهم للمعنى الذي يدل عليه اللفظ العربي السليم ـ يسمحون لأنفسهم باستنباط معانٍ للآيات تخطر في أذهانهم عند التلاوة وإن لم تدل عليها الآيات القرآنية الكريمة بطريق من طرق الدلالات المعروفة في الاستعمال العربي للغة وطرائق التعبير فيها. أما المنحرفون من أتباع الفرق الباطنية وإفرازاتها القديمة والحديثة فتمتلئ تفاسيرهم بالانحرافات التي تنطق بالتعسف والافتعال، ومحاولات تطويع القرآن الكريم لمبادئهم المضللة في تكلف ملحوظ.

مع كل ذلك هل يمكن أن يتوقف علم التفسير عند حدود جهود السابقين من المفسرين ـ على فضلهم وفضل ما قدموه لخدمة فهم القرآن الكريم في حدود المعرفة المتاحة في أزمنتهم؟ ـ بالقطع لا؛ لأن القرآن الكريم أنزل للناس ليتدبروا آياته، ويفهموا دلالاته، ويعيشوا معانيه، ويتخذوه دستوراً كاملاً ونظاماً شاملاً لحياتهم، وهذا لا يتأتى بالوقوف به عند جهود السابقين. علماً بأن كتب التفسير تحوي تراثاً دينياً، وفكرياً وتاريخياً لهذه الأمة لا يمكن التضحية به، حتى ولو كانت به بعض الأخطاء أو التجاوزات، إلا إذا كان القصد الواضح هو التحريف، وهو أمر لا يصعب على عاقل إدراكه.

٩ ـ إن الإعجاز في الآيات الكونية الواردة في كتاب الله يتلخص في سبق هذا الكتاب الكريم بأكثر من عشرة قرون كاملة لجميع المعارف المكتسبة؛ وذلك بالإشارة إلى عدد من حقائق الوجود التي لم تعرف إلا منذ عقود قليلة. وهذا السبق العلمي لكتاب أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً على نبي أُمي ـ ﷺ ـ

وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي عالم تميز بالجهالة الكاملة في هذه الأمور، وبالافتقار إلى أبسط وسائل وأجهزة الكشف العلمي هو الذي يجسد جانب الإعجاز لأن هذا السبق لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً غير الله الخالق. ومن هنا فلا بد من توسيع المدلول اللغوي لكلمة (المعجزة) ليشمل هذا السبق العلمي. كذلك لا بد من التأكيد على أن الادعاء بأن في وصول عدد من العلماء إلى معرفة شيء من حقائق الوجود ما يمكن أن يخرج الإشارات الكونية الواردة في القرآن الكريم عن تلك الحقائق من دائرة الإعجاز هو قول غير صحيح لأن الإعجاز هنا يتمثل في قضية السبق الزمني لجميع المعارف المكتسبة بعدد من القرون المتطاولة.

من كل ما سبق يتضح لنا أن حجج المضيقين في رفض تفسير الإشارات الكونية في كتاب الله على ضوء ما تجمع اليوم لدى الإنسان من معارف بالكون وعلومه هي كلها حجج مردودة، فالكون صنعة الله، والقرآن الكريم هو كلام خالق الكون وواضع نواميسه، ولا يمكن أن يتعارض كلام الله الخالق مع الحقائق التي أودعها في خلقه إذا اتبع الناظر في كليهما المنهج السليم، والمسلك الموضوعي الأمين؛ فمن صفات الآيات الكونية في كتاب الله أنها صيغت صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني في كل آية من تلك الآيات الدالة على شيء من أشياء الكون أو ظواهره أو نشأته أو إفنائه وإعادة خلقه، وتظل تلك المعاني تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهذا ـ عندي ـ من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

ومن هنا كانت ضرورة استمرارية النظر في تفسير تلك الآيات الكونية، وضرورة مراجعة تراجمها إلى اللغات الأخرى بطريقة دورية. أما آيات العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات فقد صيغت صياغة محكمة يفهم دلالتها كل مستمع إليها مهما قلت ثقافته أو زادت؛ لأن تلك الآيات تمثل ركائز الدين الذي هو صلب رسالة القرآن الكريم.

ومن أمثلة ذلك قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

وقوله الكريم: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقوله العزيز: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقوله الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿. . . وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أما الآيات المتعلقة بذات الله وصفاته، وبالروح وأسرارها، وبالملائكة والجن، وبحياة البرزخ وحساب القبر، وبالبعث، والحساب، والجنة، والنار، وبالآخرة وما فيها من الغيوب وغير ذلك من الأمور الغيبية غيبة مطلقة فلا يملك المسلم حيالها إلا الإيمان بما جاء عنها في كتاب الله ـ تعالى ـ وفي سنة رسوله ﷺ، والتسليم في فهمها لنص القرآن الكريم أو للمأثور من تفسير المصطفى ﷺ؛ لأن الإنسان لا يمكن له أن يصل إلى عالم الغيب المطلق إلا ببيان من الله الخالق أو بخبر من خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وذلك لأن قدرات عقل الإنسان المحدودة، وحواسه المحدودة لا يمكن لهما اجتياز حدود عوالم الغيوب المطلقة مهما أوتي الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة؛ ومن هنا كان امتداح القرآن الكريم للذين يؤمنون بالغيب.

ثانياً: موقف الموسعين في التفسير العلمي للقرآن الكريم:

يرى أصحاب هذا الموقف أن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد قصدت لذاتها، أي: لدلالاتها العلمية المحددة، مع التسليم بوجوب استخلاص الحكمة والعبرة منها والوصول إلى الهداية عن طريقها؛ وانطلاقاً من ذلك فقد قام

أصحاب هذا الموقف بتبويب آيات الكونيات في كتاب الله، وتصنيفها حسب مختلف التصانيف المعروفة في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية، ثم اندفعوا في حماسهم لهذا الاتجاه إلى المناداة بأن القرآن الكريم يشمل جميع العلوم والمعارف. ولابد لحسن فهم تلك الإشارات الكونية في كتاب الله من تفسيرها على ضوء اصطلاحات تلك العلوم، ثم زاد البعض بمحاولة إثبات أن جميع حقائق العلوم البحتة والتطبيقية التي استخلصها الإنسان بالنظر في جنبات الكون هي موجودة في القرآن الكريم استناداً إلى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وهذا في رأينا موقف مبالغ فيه، فالسياق القرآني في الآيتين السابقتين لا يتماشى مع ما وصلوا إليه من استنتاج؛ لأن هاتين الآيتين الكريمتين تشيران إلى رسالة القرآن الكريم الأساسية، وهي الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، وهي القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة. ولذلك استوفاها القرآن استيفاء لا يقبل إضافة. أما قصص الأمم السابقة، والإنباء ببعض الغيوب، والإشارات الكونية، وكل من القضايا التربوية والنفسية والإدارية والاقتصادية وغيرها مما جاء به القرآن الكريم؛ وبخاصة الإشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، فقد جاء هذا الكتاب العزيز بنماذج منها فقط تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة على الخلق وبالقدرة على إفنائه وإعادته من جديد، كما تشهد على وحدانية الله المطلقة فوق جميع خلقه.

وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن القرآن الكريم لم يخبرنا إلا عن خمسة وعشرين نبياً من أنبياء الله، بينما روي عن رسول الله ﷺ أن عدد الأنبياء بلغ مئة وعشرين ألفاً، وأن الله اصطفى من هذا العدد الكبير من الأنبياء ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً.

وربما كان هذا الموقف الموسع من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تحفظ المتحفظين من الخوض في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على

أساس من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، أو التعرض لإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها.

ثالثاً: موقف المعتدلين في التفسير العلمي للقرآن الكريم:

يرى أصحاب هذا الموقف أنه مع التسليم بأن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية، أساسها الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والأمر بالعبادات المفروضة، والحث على الالتزام بمكارم الأخلاق، وعلى التعامل بين الناس بالعدل والإحسان؛ أي أنه دستور كامل للحياة في طاعة خالق الكون والحياة. ومع التسليم كذلك بأن الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله قد جاءت في معرض التذكير بقدرته المطلقة وببديع صنعه في خلقه، وشمول علمه، وكمال صفاته وأفعاله؛ إلا أنها تبقى بياناً من الله خالق الكون ومبدع الوجود، ومن أعلم بالكون من خالقه؟!

من هنا كانت تلك الإشارات الكونية كلها حقاً، وكانت كلها منسجمة مع قوانين الله وسننه في الكون، وثابتة في دلالاتها ـ مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية ـ فلا تعارض ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

من هنا أيضاً كان واجب علماء المسلمين في كل عصر من العصور إعادة مدارسة تلك الآيات الكونية، والاستفادة بكل أنواع المعارف المتاحة في تفسيرها، وإظهار جوانب الإعجاز فيها، تأكيداً لإيمان المؤمنين، ودعوة ناجحة لغير المسلمين باللغة التي يفهمونها؛ ودحضاً لافتراءات المفترين، وتثبيتاً للحقيقة الراسخة: أن القرآن الكريم هو كلام الله في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، والحق المطلق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظ كتابه الكريم تعهداً مطلقاً حتى يبقى هذا الكتاب (القرآن الكريم) حجة على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، وشاهداً للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

ومن هنا كذلك كان التسليم بأن تلك الإشارات الكونية لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلٰهية قد اقتضت ترك كل معرفة ـ غير أصول الدين ـ مجالاً مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين يتنافس فيه المتنافسون ويتبارى فيه المتبارون، أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها. فلو أن الإرادة الإلٰهية قد ارتضت بسط الكون بكل حقائقه كاملة أمام الإنسان لانتفت الغاية من الحياة الدنيا، وهي دار ابتلاء واختبار، ولاختفى ذلك الغيب الذي يشد الإنسان إليه بجميع حواسه وكل قواه العقلية والفكرية، ولتبلدت تلك الحواس والقدرات، ولمضت حياة الإنسان على الأرض رتيبة كئيبة بائسة، جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، بغير تجديد أو تنويع أو إبداع، وسط عالم يتميز بالتغير في كل أمر من أموره وفي كل لحظة من لحظات وجوده. هذا فضلاً عن أن العقل البشري عاجز عن تقبل الحقائق الكونية الكلية دفعة واحدة، وأنه محتاج في فهمها إلى شيء من التدرج في الكشف وفي استخراج الأدلة وإثباتها، وفي تكامل معطياتها على مدى أجيال متعاقبة، بالتجربة والملاحظة والاستنتاج، وباستقراء سنن الله في الكون.

ويستدل أصحاب هذا الموقف المعتدل بما يلي:

١ ـ الحشد الهائل من الإشارات الكونية في كتاب الله، ومطالبة القرآن الكريم للإنسان دوماً بتحصيل المعرفة النافعة على إطلاقها، وهذه أولى آيات القرآن العظيم تأمر بذلك وتحدد وسائله، وتحض على التأمل في الخلق، بل وتشير إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا بعد ذلك بقرون طويلة ألا وهي: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾؛ وهي حقيقة لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد اكتشاف المجاهر المكبرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

٢ ـ ما يقرره القرآن الكريم من مسئولية الإنسان عن حواسه وعقله وما يفرضه من ضرورة حسن استخدامهما في التعرف على الكون، واكتساب المعارف

النافعة منه، وتوظيف ذلك في حسن فهم كتاب الله، حيث يقرر الحق ـ تبارك وتعالى ـ مسؤولية الإنسان عن حواسه وذلك بقوله في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٣ ـ رفض القرآن الكريم للتقليد والجمود على الآراء الموروثة الخاطئة، والحكم بالظن والهوى، ومطالبته الإنسان دوماً بتأسيس الأحكام على الدليل العقلي الذي لا يقبل النقض. وهذه كلها من أخص خصائص المنهج التجريبي في دراسة الكون وما فيه.

٤ ـ تكريم القرآن الكريم للعلم والعلماء ـ بمن فيهم من علماء الكونيات ـ في العديد من آيات الذكر الحكيم نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والآية الأخيرة قد وردت بعد استعراض لكثير من المشاهد الكونية، مما يؤكد أنها تشمل علماء الكونيات وإن لم يكونوا هم المقصودين بها مباشرة، فالآية تنطق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

٥ ـ مطالبة القرآن الكريم للإنسان ـ في تشديد واضح ـ بالنظر في كل ما خلق الله. وهذه أوامره صريحة جلية نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقوله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

٦ ـ وينتصر أصحاب هذا الموقف المعتدل لموقفهم بما ينعاه القرآن الكريم على الغافلين عن التفكير في آيات السمٰوات والأرض، وذلك في كثير من آياته التي منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ويصف القرآن الكريم هؤلاء الغافلين بأنهم كالأنعام بل هم أضل، ويقرر بأن جزاءهم جهنم عقاباً لهم على إهمالهم نعم الله التي أنعم بها عليهم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٧ ـ ويستشهدون على ضرورة توظيف المعارف العلمية المتاحة لفهم دلالة الآيات الكونية في كتاب الله بربط القرآن الكريم دوماً بين الإيمان بالله والنظر فيما خلق وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ

لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

٨ ـ ويستشهد المنادون بضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية في كتاب الله بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ـ في استعراضه لأمور الكون ـ يتناول كليات الأشياء تاركاً التفاصيل لاجتهاد الإنسان، ولكنه في نفس الوقت ينبه باستمرار إلى جوانب مهمة من مثل «الكم» و«الكيف» وهما من أسس العلوم التجريبية؛ «الكم» الذي يتعلق بالحجم والكتلة وبالزمان والمكان، وبدرجات النمو والاندثار وغيرها يتمثل في كثير من الآيات القرآنية التي نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وبخصوص «الكيف» بمعنى هيئة الأشياء وتركيبها ومسبباتها، ومجرى الظواهر الكونية وحدوثها، والسنن الإلٰهية وجريانها فإن القرآن الكريم يشدد التنبيه عليها في مواضع كثيرة منها قول الله تعالى:

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

وقوله عز من قائل:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

٩ ـ ويستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل كذلك على ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية بتأكيد القرآن الكريم أن لكل شيء في هذا الكون فطرته السوية التي فطره الله عليها، والتي تخصه وتميزه، وهي قاعدة أساسية من قواعد المنهج العلمي التجريبي في الكشف عن حقائق هذا الكون ومكوناته وسنن الله فيه، ونقرأ في ذلك قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

وأن هذه الفطرة ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وأن هذه الفطرة خاضعة لقوانين مطردة، لا تتخلف ولا تتوقف إلا بإذن الله، وأنه لولا ثبات تلك الفطرة واطراد القوانين التي تحكمها ما تمكن الإنسان من اكتشاف أي من أمور هذا الكون، وأن القرآن الكريم يصر على تسمية تلك القوانين بالحق، وعلى أن الكون وما فيه خلق بالحق، ويطالب الإنسان بالتعرف على ذلك الحق والتزامه، فالتنزيل ينطق بقول الله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]. وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨]. وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً

وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]. وقوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

١٠ ـ كذلك فإن الذين يرون ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله وفي الاستشهاد على الإعجاز العلمي لتلك الآيات ينتصرون لذلك بأن أكثر من أربعين سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها (١١٤) سورة تحمل أسماء لبعض أشياء الكون وظواهره، ويستشهدون بعرض القرآن الكريم للعديد من القضايا التي هي من صميم العلوم التجريبية من مثل خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واتساع الكون، وفتق السمٰوات والأرض، وبدء تكون السماء بدخان، وخلق الحياة من الماء وفي الماء، واستعراض مراحل الجنين في الإنسان، وغير ذلك كثير مما لا يوفيه في هذا المقام حصر، ولكن تكفي الإشارة إلى آيات قليلة منها من مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وآيات الكتاب الحكيم في كل ما عرضت له من أمور الكون تتميز بمنتهى الدقة في التعبير، والشمول في المعنى، والإحاطة في الدلالة، وبالسبق الإخباري بحقائق لم يتيسر للإنسان إلمام بها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. وهذا بالقطع يشكل صورة من صور الإعجاز لم تتوفر لجيل من الأجيال من قبل.

وخلاصة القول أن القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التي تشير إلى الكون وما به من كائنات ـ جمادات وأحياء ـ وإلى صور نشأتها ومراحل تكوينها، وإلى العديد من الظواهر الكونية المصاحبة لها، وقد أحصى الدارسون من مثل

هذه الآيات حوالي ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، مما يبلغ بعدد الآيات الكونية إلى سدس مجموع آيات القرآن الكريم تقريباً. ويقف المفسرون من هذه الآيات الكونية مواقف متعددة فمنهم المضيقون والموسعون ومنهم المعتدلون.

فالمضيقون يرون أن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم لذاتها، وإنما وردت من قبيل الاستدلال على قدرة الله ـ تعالى ـ وإبداعه في خلقه، وقدرته على إفناء الخلق ثم بعثه، ولإثبات وحدانية الخالق المطلقة فوق جميع خلقه، ومن ثم فلا يجوز تفسيرها في ضوء معطيات العلوم الحديثة؛ وذلك بدعوى انطلاق الكتابات العلمية من منطلقات مادية، منكرة لكل ما هو فوق المدرك المحسوس.

أما **الموسعون** فيرون أن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف، ولا بد لحسن فهم ذلك من تفسيره على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من رصيد علمي خاصة في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، ومن ثم فقد قاموا بتبويب آيات الكونيات في كتاب الله وتصنيفها حسب التصانيف المعروفة في مختلف مجالات تلك العلوم، وتميز ذلك بشيء من التكلف الذي أدى إلى رفض المنهج والوقوف في وجهه.

أما **المعتدلون** فيرون أنه مع التسليم بأن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد وردت في معرض التذكير بقدرة الله، وبديع صنعه في الخلق وفي الاستشهاد على قدرته ﷻ على الإفناء والبعث، فإنها تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي حق مطلق. ولا غرابة إذن من انسجامها مع قوانين الله وسننه في الأنفس والآفاق، ومع معطيات العلوم الحديثة عن حقائق هذا الوجود. كذلك فإنهم يرون أنه مع التسليم بأن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ المباشر بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلٰهية قد اقتضت ترك ذلك لاجتهاد الإنسان على مر الزمن، إلا أنها تتميز بالدقة المتناهية في التعبير، والإحاطة في الدلالة، والشمول في المعنى، بحيث يدرك فيها أبناء كل جيل ما يتناسب مع مستوياتهم الثقافية، وما وصلوا إليه من علوم، ثم إن تلك الدلالات

تتميز كلها بالسبق إلى الحقيقة الكونية قبل أن تدرك الكشوف العلمية شيئاً منها بقرون طويلة، وهذا في حد ذاته يمثل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي هو أحد أوجه الإعجاز العديدة في كتاب الله. خاصة وأن القرآن الكريم قد تم إنزاله من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أُمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي ذلك يقول هذا الكتاب العزيز عن رب العالمين: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ولذلك يبقى الإعجاز العلمي في كتاب الله من أنسب وسائل الدعوة إلى دين الله في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه تثبيتاً لإيمان المؤمنين، ودعوة للجاحدين من مختلف صور المشركين والكافرين والضالين، في عالم تحول إلى قرية كبيرة، ما يحدث في أحد أركانها يتردد صداه في بقية أرجائها، ولا يأمن أهل الحق أن يصيبهم ما أصاب الأمم الضالة من عقاب، أو أن يجرفهم تيار الحضارة المادية فيذيبهم في بوتقتها، وبذلك يخسرون الدنيا والآخرة. وطوق النجاة في الحالتين يتمثل في الاعتزاز بالإسلام العظيم، والتمسك بالقرآن الكريم الذي يتجلى إعجازه العلمي في عصر العلم الذي نعيشه يوماً بعد يوم، وجيلاً بعد جيل حتى يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها. وفي ذلك يقول المصطفي ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**» (البخاري ومسلم).

رابعاً: الرد على معارضي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

في الردّ على المعارضين لقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم نؤكد على أن المعرفة الإنسانية كلٌّ لا يتجزأ، ولكنها تُصَنَّف في محاور متعددة من أجل التيسير على الدارسين. وقد سبق لنا تصنيفها في شكل هرمي على النحو التالي:

١. قاعدة الهرم وتحتوي كل (العلوم البحتة والتطبيقية) ـ على اختلاف مجالاتها ـ.
ووضعها في قاعدة الهرم المعرفي للإنسان ليس من قبيل الاستهانة بها، ولكن

بسبب كونها وسيلة إعمار الحياة المادية على الأرض، وإتقانها هو من وسائل عون الإنسان على حسن القيام بواحد من أهم واجبات الاستخلاف في الأرض؛ بعمارة مختلف النواحي المادية فيها.

٢. ويأتي فوق العلوم البحتة والتطبيقية (فلسفاتها): بالمعنى الإسلامي للفلسفة وهو حب الحكمة؛ أي استخراج الحكمة من كل أمر مادي يراه العالم المتخصص، وكل ظاهرة كونية يرصدها؛ لأن الحكمة ـ كما وصفها رسول الله ﷺ ـ هي ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أولى الناس بها.

٣. ويأتي فوق فلسفة العلوم كل (الدراسات الإنسانية)؛ لأن الإنسان في الإسلام مخلوق مكرم، وكل ما يتعلق بهذا المخلوق المكرم لا بد أن يكون مكرماً.

٤. ويأتي فوق الدراسات الإنسانية (فلسفاتها)؛ بمعنى استخراج الحكمة من كل علم من هذه العلوم الإنسانية (اللغات بمختلف آدابها، الفنون النافعة بمختلف أشكالها، التاريخ، الجغرافيا، الاقتصاد، المحاسبة، الإدارة، علم النفس، علم الاجتماع، علم دراسة الإنسان، علم الجريمة، العلوم السياسية، الدراسات القانونية، وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالإنسان وسلوكياته).

٥. ويأتي في قمة الهرم (وحي السماء) وما يشمل من دراسات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما بهما من قواعد العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات وما ينظم ذلك من تشريعات؛ لأن وحي السماء هو بيان من الله ـ تعالى ـ للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بعلمه المحيط أن الإنسان يعجز عجزاً كاملاً عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها، ومن هنا كانت ضرورة الوحي بالدين.

وهذا الهرم المعرفي لا يمكن لأحد من الناس أن يحيط به إحاطة كاملة، ومن هنا وجب على كل متعلم أن يتخصص في شريحة من شرائح هذه المستويات الخمسة، ولكن لكي يفهم الإنسان حقيقة رسالته في هذه الحياة، ويتعلم ضوابط تحقيقها على الوجه الذي يرتضيه الله فلا بد له من الإلمام بشيء عن كل واحد من

المستويات الأخرى: ليحقق شمولية المعرفة التي تميزت بها الحضارة الإسلامية عبر التاريخ، والثقافة العامة التي يحتاجها كل متخصص.

ولكن في أزمنة التخلف والانحطاط التي عاشتها الأُمتان العربية والإسلامية خلال القرنين الماضيين ـ ولا تزال تعيشها في مطلع القرن الحالي ـ انتقل إلينا من الغرب مرض (الفصل بين المعارف)، وإن كان لذلك مبرراته في الحضارة الغربية، فلا مبرر له على الإطلاق في عالم الإسلام. فالحضارة الغربية قامت على فصل الدين عن الدولة، وفصل المعارف المكتسبة عن الدين فصلاً كاملاً، بينما في الإسلام العظيم يطبق الدين نظاماً كاملاً شاملاً للحياة.

وبتقليد الغربيين في الفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني تخلَّفت المجتمعات المسلمة تخلُّفاً ملحوظاً، وذلك بسبب تخرج علماء شرعيين قد يكونون على أعلى مستوى يدرك في تخصصاتهم، ولكن لعزلتهم عن المعطيات الكلية للمعارف المكتسبة انعزلوا عن مجتمعاتهم انعزالاً كاملاً ـ إلا من رحم ربك ـ. وبالمقابل فإن جامعاتنا تُخَرِّج علماء مدنيين قد يحققون التفوق في تخصصاتهم، ولكن لعزلتهم عن الدين لم يروا أدنى رابط بين العلوم المكتسبة والدين ـ إلا من رحم ربك ـ! وهذا يشكل وجهاً من أوجه أزمة التعليم المعاصر في عالمنا الإسلامي.

ويجسِّد هذه الأزمة اختلاف علماء الأمة حول (قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم): فالعلماء الشرعيون ـ بحكم تخصصاتهم ـ يرون أن معجزة القرآن الكريم هي معجزة بيانه ونظمه فقط، والتي أدرك أساطين اللغة العربية فيها ـ ومنذ سماع أولى آيات القرآن تتلى عليهم ـ أنها علامة فارقة بين كلام الله ـ تعالى ـ وكلام عباده من البشر الذين خلقهم بعلمه وحكمته وقدرته. في المقابل يرى المتخصصون في العلوم المكتسبة أنه لا توجد أدنى علاقة بين المعارف المكتسبة ووحي السماء!

ولحل هذا الإشكال قام نفر من علماء المسلمين بالجمع بين الثقافتين الدينية والمكتسبة؛ فأثبتوا بالأدلة المنطقية التي لا يرفضها عاقل أن القرآن الكريم

ـ لكونه كلام الله ـ في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية ـ لا بد أن يكون معجزاً في كل أمر من أموره: في بيانه ونظمه، في فصاحته وبلاغة أسلوبه، في كمال رسالته ودقة مضامينه، ومنها مجموع العقائد التي يدعو الناس إلى الإيمان بها، ومجموع العبادات التي يأمرهم بأدائها، والدستور الأخلاقي الذي يدعوهم إلى الالتزام به، ودستور المعاملات التي شرعها لهم. ومنها استعراضه لتاريخ عدد من الأمم البائدة ومواقفها من أنبياء الله ورسله، ومنها أسلوب القرآن التربوي الفريد، وخطابه إلى النفس الإنسانية وارتقائه بها، وفي إنبائه الصادق بالغيب القريب والبعيد، وفي إشاراته العلمية الصحيحة والدقيقة إلى الكون ومكوناته وظواهره، وإلى الإنسان وخلقه وإفنائه وبعثه، وإلى مراحل الأجنة التي يمر بها نسله، وإلى غير ذلك من حقائق الوجود.

وسَبقُ القرآن الكريم بالعديد من الحقائق العلمية قبل وصول المعارف المكتسبة إليها بعدة قرون هو المقصود بتعبير (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم)، بمعنى أن هذا الكتاب العزيز قد سبق بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتوصل إليها معارف الإنسان المكتسبة إلا بعد قرون عديدة من تنزل القرآن الكريم يزيد عددها في كثير من الأحيان عن عشرة قرون كاملة في أقل التقديرات لها. ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذا الكم الهائل من الحقائق القرآنية مصدراً غير الله الخالق ـ سبحانه ـ حيث لم يكن ممكناً لأحد من البشر إدراك شيء من هذا الحق في زمن الوحي ولا لقرون عديدة من بعده بوسائل العلم البشري المكتسب. وفي إثبات ذلك تأكيد لكل عاقل ـ بصفة عامة ـ ولأهل العلم وطلاب الحق ـ بصفة خاصة ـ أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وحفظه حفظاً كاملاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً؛ حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى يوم الدين بأنه كلام رب العالمين، وشاهداً للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

و(الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) هو أسلوب فريد في الدعوة إلى دين الله الخاتم بلغة مناسبة لعصر تَفَجُّر المعرفة العلمية الذي نعيشه. وقد سبق الإخبار بتحقيق وقوعه في حياة الناس من قبل أربعة عشر قرناً وذلك في عشرات الآيات القرآنية الكريمة التي منها قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

أما المضيقون الذين يَقْصُرون (الإعجاز في القرآن الكريم) على بيانه ونظمه فقط بدعوى أنه الجانب الذي تحدي به العرب زمن الوحي فيما كانوا يجيدونه ويتقنونه؛ فقد نسوا أن التحدي بالقرآن الكريم لم يكن للعرب فقط بل نزل للجن والإنس، فرادى ومجتمعين، وليس جميعهم يعرف اللغة العربية فضلاً عن إجادتها وإتقانها.

ثم إن الادعاء بأن المثلية التي جاء بها التحدي هي مثلية البيان والنظم فقط ادعاءٌ لا سند له من الكتاب أو السنة أو المنطق السوي، فضلاً عن أن فيه إجحافاً ظالماً بفضل القرآن الكريم؛ لأنه مع إيماننا التام بأن بيان القرآن ونظمه معجز، إلا أن البيان يبقى إطاراً لمحتوى ومضمون، والمحتوى والمضمون أهم من الإطار وأعظم شأناً! ومحتوى القرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات. بالإضافة إلى ما جاء به من قصص الأولين، وأنباء اللاحقين، وإشارات كونية ونفسية واجتماعية واقتصادية وإدارية، وحفظ مطلق على مدى الدهر. ومن هنا جاء التحدي للجن والإنس ـ فرادى ومجتمعين ـ أن يأتوا بشيء من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً دون أن يواجهه عاقل! وهذا التحدي هو بالقرآن كله وليس فقط ببيانه، وأما القول بثبات القرآن واطراد نمو المعارف الإنسانية المكتسبة باستمرار تقدم تلك المعارف، والانتقال من ذلك إلى الدعوى بعدم جواز تفسير الثابت من الآيات الكونية في كتاب الله بالمتغير من المعارف الإنسانية المكتسبة فهي دعوى ساذجة؛ لأن معناها الجمود على فهم واحد لتلك الإشارات الكونية في كتاب الله، وهذا الجمود يتخلف بالمسلمين عن معايشة عصرهم في كل زمان ومكان، وهو أمر لا يرضاه الله تعالى

لهم.وثبات اللفظ القرآني مع تطور الفهم البشري لدلالاته مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، في تكامل لا يعرف التضاد هو ـ عندي ـ من أعظم أوجه الإعجاز في كتاب الله.

وانطلاقاً من ذلك فإن (الإعجاز العلمي في كتاب الله) يتلخص في صدق كل إشارة علمية جاء بها، وفي سبق هذا الكتاب العزيز بأكثر من عشرة قرون كاملة لجميع المعارف المكتسبة بعدد من الحقائق العلمية الثابتة التي جاءت في أكثر من ألف آية قرآنية كريمة؛ وذلك لأن قيمة الكشف عن أية حقيقة علمية لا بد من أن يؤخذ في إطاره الزمني.

ووصول الإنسان مؤخراً إلى عدد من حقائق الكون التي سبق تنزلها في القرآن الكريم من قبل أكثر من عشرة قرون لا يمكن أن ينفي ومضة الإعجاز العلمي عن هذا الكتاب الخالد؛ لأن الزمن عامل مهم في الحكم على مثل هذه القضايا. أما الاحتجاج بالتعريف اللغوي للفظة (المعجزة) وجمعها (المعجزات) بأنها: الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي لعجز البشر عن الإتيان بمثله، من مثل ما كرَّم الله ـ تعالى ـ به نبيّاً من أنبيائه من فعل خارق للعادة يؤيد به نبوته، واستخدام هذا التعريف في حَجْرِ الإعجاز القرآني في دائرة البيان والنظم فقط؛ فهو احتجاج باطل لأن التعريف اللغوي لإعجاز القرآن الكريم يمكن توسعته ليشتمل على المراد الحق، والتزام الصدق، والدقة البالغة، والتفوق، والسبق في كل أمر من الأمور؛ بحيث يعجز الخلق أجمعون ـ إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين ـ عن تحقيق شيء من مثله في نفس الزمان والمكان الذي أنزل فيهما. وعلى ذلك يكون من معاني إعجاز القرآن؛ دقته العلمية المطلقة، مع تفوقه وسبقه في كل أمر من أموره. علماً بأن هناك اعتراضاً من عدد من علماء التفسير واللغة على استخدام لفظة (معجزة) لعدم ورودها بهذا المعنى في كتاب الله.

ولقد ناقش عدد من أساتذة التفسير واللغة العربية وآدابها (قضية الإعجاز

العلمي في القرآن الكريم)، وبحكم تخصصاتهم حجروا القضية في إطار البيان والنظم فقط، واختلفوا على النحو التالي:

١. فمنهم من قال بأن الإشارات العلمية في القرآن الكريم لا تعتبر من وجوه الإعجاز، وإنما هي أدلة على أن القرآن كلام الله ـ تعالى ـ؛ وذلك لأن الإعجاز قائم على التحدي، ولا إعجاز إلا بالتحدي، ويضيف: أنا أرى أن المثلية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ...﴾ هي المثلية البيانية. فمن لا يعرف العربية لا أتحداه، ولكن أخاطبه بالأدلة الأخرى التي تسمى (دلائل مصدره الرباني). ويضيف أصحاب هذا الرأي قولهم: هذا الذي لا يتكلم العربية أقول له: تعال أعطيك دورة لغة عربية، وعندما تتقن اللغة العربية كأي عربي أقول لك: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ...﴾ وعندها سوف يعجز.

وهنا أترك للقارئ الكريم الحكم على إمكانية تحقيق ذلك! ثم يعمد بعض هؤلاء الإخوة الكرام إلى محاولة التصحيح من موقفه هذا فيقول: ولكن عدم القول بالإعجاز العلمي لا يعني إلغاء الحقائق العلمية في القرآن الكريم، بل يجب تعلمها وتقديمها للناس باعتبارها أدلة على أن القرآن كلام الله. وهل المشتغلون بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يطلبون بأعمالهم أكثر من الوصول إلى هذه الحقيقة؟!.

٢. ومن الحاجرين لقضية (الإعجاز في القرآن الكريم) في دائرة بيانه ونظمه فقط عدد من شديدي الانبهار بالحضارة الغربية لدرجة أن أحدهم يصف الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) بقوله: «دعنا نقول إن (موريس بوكاي) هو أصح ذهناً من كثير من المسلمين المعاصرين». ولو فهم هذا الأخ الكريم حقيقة ما كتبه (موريس بوكاي) ما تلفظ بهذه الإساءة إلى آلاف من العلماء المسلمين الذين سبقوا (موريس بوكاي) ولحقوا به وتابعوه وكتبوا ما لم يكتبه (بوكاي)، مع تقديرنا الكبير لما كتب من إنصاف. علماً بأن هذا الطبيب الفرنسي ـ على فضله ـ لم يكتب في إعجاز القرآن ولكنه أشار إلى شيء من الدقة العلمية في عدد من

الآيات القرآنية الكريمة. وقد حمدنا له ذلك لصدوره عن طبيب كاثوليكي ـ لم يكن قد أعلن إسلامه بعد ـ انطلاقاً من قاعدة: والحق ما شهدت به الأعداء، أما الانبهار الزائد عن الحد بكل عمل غربي ـ لمجرد كونه غربياً ـ فهو موقف انهزامي لا يرضاه الله ـ تعالى ـ، ولا يرضاه رسوله، ولا يرتضيه الحكم السوي.

ويضيف هذا الأخ الكريم خطأً آخر بقوله: فمثلاً دوران الأرض حول الشمس فعل واقع وليس نظرية، لكن المدار الذي تدور فيه نظرية، وقد تأتي نظرية فتحدد المدار بشكل أفضل. وهذا تنزيه للنص القرآني عن أن يكون كلاماً في الطب أو الفلك أو الرياضيات أو غير ذلك، ولو علم الأخ الكريم أن مدار الأرض حول الشمس، وكذا مدارات كل أجرام مجموعتنا الشمسية حولها محدد بدقة بالغة ما قال هذا الكلام! ولو قرأ شيئاً عن (ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) ما وصل إلى مثل هذا الاستنتاج الخاطئ.

أما القول بعدم تسمية الحقائق العلمية الواردة في القرآن الكريم إعجازاً؛ بدعوى أن الإعجاز أساساً هو ثمرة للتحدي، وبدعوى أن الحقائق العلمية التي تضمنها هذا الكتاب العزيز في آيات عدة إنما جاءت في سياق الاستدلال على قدرة الله ـ تعالى ـ لا في سياق التحدي أساساً، فقد سبق أن رددنا عليه في مطلع هذا الفصل.

ويضيف هذا الأخ الكريم قوله: ومن هنا يتم التفريق بين إعجاز القرآن ـ وهو عنده إعجاز نظمه فقط ـ والتفسير العلمي للقرآن ـ ويقصد به الانتفاع بحقائق العلم التجريبي في شرح آياته ـ. وهذه الحقائق تصب في خانة أن القرآن وحي يوحى، ولا تسمى إعجازاً؛ لأن الإعجاز وصف زائد على كونه وحياً. ومن ثم فإن الأدلة التي يسوقها الباحثون في الإعجاز العلمي على أن القرآن وحي لا تدخل في باب الاستدلال على أن القرآن معجز؛ فالقرآن معجز بنفسه وليس

بتفسيرنا له؛ بمعنى أن النص القرآني نفسه معجز سواء فهمنا معناه أم لم نفهم، أو أدركنا المدلول العلمي له أم لم ندركه. وهذا خلط عجيب أرى أن يجلِّيه هذا الكتاب؛ لأن كل وحي لا بد أن يكون معجزاً لصدوره عن الله ـ ﷻ ـ، وكل ما يصدر عن الله الخالق ـ ومنه الوحي بالقرآن ـ لا بد أن يكون معجزاً للإنسان في كل أمر من أموره.

٣. ومن الأساتذة الأفاضل الذين يحصرون إعجاز القرآن الكريم في دائرة بيانه ونظمه فقط من يقول: إن الإعجاز هو أن أهل هذه اللغة عجزوا عن أن يأتوا بمثله، ولذلك فإنهم يفضلون استعمال تعبير **(إعجاز الخلق)** بدلاً من **(الإعجاز العلمي)**؛ بدعوى أن تعبير (الإعجاز العلمي) ليس متفقاً مع الموضوع؛ لأن القرآن لم يتحد البشر أن يأتوا بحقائق علمية. ولست أدري ما هو الفرق بين هذين التعبيرين!

من هذا الاستعراض يتضح بجلاء أن القرآن الكريم هو كلام الله الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، بلسان عربي مبين، والمنقول عنه نقلاً متواتراً بلا أدنى شبهة بنفس اللغة التي أوحي إليه بها، والذي تعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وبحفظه حفظاً مطلقاً، والذي نجده في المصاحف التي خطت ثم طبعت على مر العصور، كما نجده محفوظاً في صدور ملايين الحفاظ جيلاً بعد جيل، ومسجلاً على مختلف صور الأشرطة والأسطوانات الممغنطة والمضغوطة، وغير ذلك من صور الحفظ الحاسوبية المتعددة، في الوقت الذي تعرضت كل صور الوحي السابقة للضياع التام، وما بقي من ذكريات عن النادر منها ظلت تنقل شفاهاً من الآباء للأبناء ومن الأجداد للأحفاد، ثم دُوِّنت بأيدي أناس مجهولين ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، بعد قرون من موت أو رفع الأنبياء الذين تلقوها؛ ولذلك فهي صياغة بشرية كاملة بكل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال؛ ولذلك ظلت هذه الكتابات المنحولة تتعرض للتبديل بعد التبديل، وللتحريف والتغيير إلى يومنا هذا، وسوف تظل تتعرض لذلك إلى قيام الساعة.

وعلى ذلك فالقرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين الموجود بين أيدي الناس اليوم محفوظاً بحفظ الله في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، محتفظاً بصفائه الرباني وإشراقاته النورانية، والحق الذي أنزل به؛ ولذلك فهو الكتاب الوحيد الذي يتعبد بتلاوته، والذي لا تصلح الصلاة إلا بتلاوة فاتحته، والذي لا يغني عنه في الصلاة شيء من الأحاديث أو الأذكار أو الأدعية.

وبهذه المعالم البينة للقرآن الكريم لا بد أن يكون معجزاً في كل أمر من أموره؛ فما من زاوية من الزوايا ينظر منها إنسان محايد إلى هذا الكتاب العزيز إلا ويرى منها أنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق. وقد عَلِمْنا من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم ما يلي: الإعجاز البياني/ النَّظْمي، الإعجاز الاعتقادي، الإعجاز التعبدي، الإعجاز الأخلاقي، الإعجاز التشريعي، الإعجاز التاريخي، الإعجاز النفسي، الإعجاز الاقتصادي، الإعجاز الإداري، الإعجاز العلمي، الإعجاز الإنبائي، الإعجاز العددي/ الرقمي، إعجاز الحفظ، إعجاز التحدي، إعجاز وصف الآخرة، الإعجاز الصوتي، إعجاز ترتيب الحروف، إعجاز المقطعات الهجائية، الإعجاز البنائي للسورة، إعجاز التكرار. وقد يرى القادمون من بعدنا في هذا الكتاب العزيز من أوجه الإعجاز ما لا نعلمه نحن اليوم.

وهذا يعني دقة، وشمول، وإحاطة، وصدق كل ما جاء في كتاب الله من هذه القضايا وغيرها، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى العديد منها قبل أن تصل مدارك الإنسان إلى شيء منها من أوضح جوانب الإعجاز في كتاب الله. فكل ما جاء فيه حق مطلق يعجز الإنسان عن الإتيان بشيء من مثله، وهذا هو الذي يليق بكلام الله في كل حرف وكلمة وآية وسورة، وفي القرآن كله من أوله إلى آخره؛ فالبشرية لم تعرف كتاباً عالج مثل هذا العدد الكبير من القضايا دون خطأ واحد غير القرآن الكريم. أما محاولة حصر إعجاز القرآن الكريم في بيانه ونظمه؛ فهو جمود على القديم الذي لا يليق بمسلم في القرن الحادي والعشرين.

الفصل الخامس

تأصيل التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ومبررات الاهتمام بها

أولاً: تعريف لفظة «الإعجاز»

قبل الوصول إلى تعريف لفظة الإعجاز لا بد لنا من الإشارة إلى أن بعض الكتاب من القدامى والمعاصرين ـ على حد سواء ـ قد اعترض على استخدام لفظ «**معجزة**» ومشتقاته في الإشارة إلى عجز الإنسان عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم أو بشيء من مثله، أو في الإشارة إلى استعصاء تقليد القرآن الكريم على الجهد البشري، واستعلاء كلام الله ـ تعالى ـ على جميع خلقه، لأن كلام الله الخالق لا بد وأن يكون مغايراً لكلام البشر جملة وتفصيلاً، ولو أنه أنزل بأسلوب يفهمه البشر وقت نزوله وفي كل عصر من العصور التالية لنزوله إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

وحجة المعترضين على لفظ «معجزة» ومشتقاته تقوم على أساس من أن اللفظ لم يرد له ذكر في كتاب الله بالمعنى الشائع اليوم، ولا في الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة، وإن وردت مشتقاته للدلالة على عدد من المعاني القريبة أو المغايرة قليلاً لذلك في ستة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم بألفاظ (أعجز)، و(معجزين)، و(معاجزين) و(عجوز) و(أعجاز) وتصريفاتها، وذلك من مثل قوله تعالى:

- ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ [المائدة: ٣١].
- ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤].
- ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩].

- ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢].
- ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].
- ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].
- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ١٩، ٢٠].
- ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].
- ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل: ٤٦].
- ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١].
- ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧].
- ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠، ١٧١].
- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢].
- ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبإ: ٥].
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبإ: ٣٨].
- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].
- ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٤ ـ ١٣٥].
- ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١].
- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٣١].

- ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢].
- ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩].
- ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].
- ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].
- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

ودلالات هذه الألفاظ في تلك المواضع قد تبعد قليلاً عما أريد التعبير عنه بلفظ (المعجزة) عند علماء اللغة، خاصة أن القرآن الكريم قد أشار دوماً إلى مدلول المعجزة بلفظ آية (بصيغة المفرد والمثنى والجمع) في أكثر من ٣٨٠ موضعاً منه، ومن هذه المواضع قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقوله: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١].

وقوله تعالى على لسان أحد أنبياء بني إسرائيل:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقوله تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿... هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله على لسان فرعون وقومه وهم يعارضون نبي الله موسى ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وهذه حجة مردودة؛ لأن التعبير عن الإعجاز في القرآن الكريم قد استخدم منذ القرون الهجرية الأولى، ولم يجد علماء المسلمين غضاضة في استخدام هذا التعبير على الرغم من عدم وروده بهذا المعنى في كتاب الله أو في أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ، علماً بأن كلًّا من تعبير الآية والبرهان يتحقق فيه شرط الإعجاز كما يتحقق في تعبير (المعجزة) تماماً حينما يكون المقصود بأيٍّ منهما إقامة الحجة على المنكرين؛ وتعبير «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم» يحقق الغاية من إثبات صدق ما جاء به القرآن الكريم، وذلك بإثبات سبقه لجميع المعارف الإنسانية التي قد تكون وصلت إلى شيء من ذلك مؤخراً. وتعبير (الآية) بكل ما يحمله من معنى الحق والإعجاز يبقى متحدياً لعالم الباطل بما لا يستطيع أن يضاهيه أو يقترب من الإتيان بشيءٍ من مثله.

وبالعودة إلى تعريف لفظة «الإعجاز»، فقد قال الراغب الأصفهاني: أصل (العَجْز) التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر، أي مؤخَّره، وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة.

قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ [المائدة: ٣١].

ويقال: (أَعْجزْتُ) فلاناً و(عَجَّزْتُهُ): جعلته (عاجزاً).

وقال ابن منظور: معنى (الإعجاز): الفَوْت والسبق. يقال: (أعجزني) فلان. أي: فاتني. وقال الليث: (أعجزني) فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه. و(المعجزة) واحدة (معجزات) الأنبياء عليهم السلام.

وقال الفيروزأبادي: و(معجزة) النبي ﷺ: ما (أعجز) به الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة.

وانطلاقاً من ذلك فُهِمَ أن (الإعجاز) لفظة مشتقة من إثبات (العَجْز) وهو

الضعف وعدم القدرة. يقال: (عجز) عن كذا: أي لم يقدر عليه، فهو (عاجز) عن الإتيان به، وجمعه (عواجز). يقال: (عجز) (عجزاً) و(عجوزاً)، و(عجزاناً) و(معجزاً) بفتح الجيم وكسرها، و(معجزة) أيضاً بفتح الجيم وكسرها، ولذا يقال: رجل (عجز) بضم الجيم وكسرها أي (عاجز)، وامرأة (عاجزة) و(عاجز)، كما يقال: (عجزه) الشيء أو الأمر بمعنى فاته ولم يقدر عليه.

ويقال: (عجزه) و(أعجزه) و(استعجزه) أي صيَّره (عاجزاً) نسبة إلى (العجز)، وتستعار لمعنى التثبيط، أي بمعنى ثبطه.

كما يقال: (عاجزه) (معاجزة) أي سابقه مسابقة، و(تعجز) أي ادعى (العجز)؛ و(الأعجز) هو العظيم العجز، ومؤنثه (العجزاء)؛ و(المعجاز) هو الدائم العجز، و(المعجوز) الذي (أعجز).

ويقال: (عجز) (عجوزاً) أي صار (عجوزاً)، و(العجوز) وجمعه (عجز) و(عجائز) المرأة المسنة.

و(العجز) وجمعه (أعجاز) مؤخر الشيء أو الجسم (وتكتب بفتح الجيم وكسرها وضمها وبفتح العين وضم الجيم أو كسرها)، و(عجز) بيت الشعر هو الشطر الثاني منه، و(أعجاز) النخل هي أصولها.

ويقال: (أعجز) في الكلام أي أدى لمعانيه بأبلغ الأساليب. و(الإعجاز) بمعنى السبق والفوت مصدر من (أعجز).

وعلى ذلك تعرف (المعجزة) وجمعها (المعجزات) بأنها الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي لعجز البشر عن الإتيان بمثله.

و(إعجاز) القرآن الكريم معناه (عجز) الخلق أجمعين ـ إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين ـ عن أن يأتوا بشيء من مثله، ولذلك أنزل ربنا ﷻ في محكم كتابه هذا التحدي الأزلي الذي يقول فيه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ويقول ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

* ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨].

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

* ويؤكد الله ﷻ على كمال القرآن الكريم فيقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ويقول ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٨٠].

* ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

* ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

* ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

والقرآن الكريم كتاب معجز في بيانه ونظمه، معجز في فصاحته وبلاغة أسلوبه، معجز في كمال رسالته ودقة مضمونه، وقد أنزل للناس كافة بدين الإسلام الذي علمه ربنا ﷻ لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وكرر إنزاله على عدد من أنبيائه ورسله، وأكمله وأتمه وحفظه في هذه الرسالة الخاتمة المنزلة على خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ. وعلى ذلك فالقرآن الكريم معجز في مجموع العقائد التي يدعو إلى الإيمان بها، وفي مجموع

العبادات التي يأمر بأدائها، معجز في دستوره الأخلاقي الفريد، وفي كل تشريع من تشريعاته الناطقة بدقتها، وعدلها، وشموليتها وتفاصيلها...!!

والقرآن الكريم معجز كذلك في استعراضه التاريخي لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافأتها أو عقابها، معجز في أسلوبه التربوي الفريد، وخطابه النفسي السوي، وفي إنبائه الدقيق بالغيب القريب والبعيد، وفي إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره، وإلى الإنسان وخلقه ومراحله الجنينية.

وهذا الجانب الأخير من جوانب الإعجاز في كتاب الله هو المقصود بتعبير «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم»، ويقصد به سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتمكن العلوم المكتسبة من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم، يزيد طولها على عشرة قرون كاملة في أقل تقدير لها. ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذه الحقائق العلمية مصدراً غير الله الخالق ﷻ حيث لم يكن ممكناً لأي من البشر إدراكها في زمن الوحي ولا لقرون عديدة من بعده، وفي إثبات ذلك تأكيد لأهل العلم في عصرنا أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتصديق للنبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ في نبوته ورسالته، وفي التبليغ عن ربه.

والإعجاز العلمي في القرآن الكريم أسلوب فريد في الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفجر المعرفة العلمية الذي نعيشه. وقد سبق للقرآن الكريم الإخبار بتحقيق وقوعه في حياة الناس من قبل أربعة عشر قرناً وذلك في العديد من آياته التي نختار منها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

* ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبإ: ٥، ٦].

* ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

* ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

* ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

* ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦، ٦٧].

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

* ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

* ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

* ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٧، ٨٨].

ثانياً: تأصيل التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

من الاستعراض السابق يتضح لنا بجلاء أن إثبات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه هو من مواقف التحدي للناس كافة ـ مسلمين وغير مسلمين ـ بأن كتاباً أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أُمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب يحوي من حقائق الكون ما لم تتوصل إليه العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وبعد مجاهدات طويلة قام بها عشرات

الآلاف من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل، وتركز الكشف عن تلك الحقائق في القرنين الماضيين بصفة خاصة. ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا العلم الحق، في ذلك الزمن البعيد، غير الله الخالق ﷻ، الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ـ ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً، وحفظه في نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ ليبقى حجة على الناس كافة إلى يوم الدين. ولمَّا كان المتحدي لا بد وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة، **فلا يجوز توظيف شيء في هذا المجال غير الحقائق القطعية الثابتة حتى يبلغ التحدي مداه في مجال إثبات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.**

وهذا الالتزام واجب حتمي في التعرض للآيات الكونية في كتاب الله باستثناء آيات الخلق بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان. وذلك لأن عملية الخلق عملية غيبية غيبة مطلقة لم يشهدها أحد من الإنس، ولذلك فلا تخضع للإدراك المباشر من الإنسان، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

ولكن القرآن الكريم الذي جاء بهذه الآية الكريمة، يأمرنا ربنا ﷻ فيه بضرورة التأمل في قضية الخلق ـ وهي قضية غير مشاهدة من قبل الإنسان ـ وذلك في عدد غير قليل من الآيات التي منها قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠].

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

والجمع بين هذه الآيات الكريمة ـ وأمثالها كثير في كتاب الله ـ يؤكد على أن خلق كل من السمٰوات والأرض، وخلق الحياة، وخلق الإنسان قد تم في غيبة

كاملة من الوعي الإنساني، ولكن الله من رحمته بنا قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان ـ بإمكانياته المحدودة ـ على الوصول إلى تصور ما لعملية الخلق، إلا أن هذا التصور يبقى في مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى مقام الحقيقة أبداً؛ لأن الحقيقة العلمية لا بد أن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه، على الرغم من محدودية ذلك الحس وهذا الإدراك.

ومن هنا فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق ـ بأبعادها الثلاثة ـ مرحلة التنظير أبداً، وتتعدد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها: هل هم من المؤمنين أو من الكفار أو المشركين أو المتشككين؟ وهل هم من السعداء في حياتهم أم من التعساء والأشقياء والمهمومين؟ وهل هم من الأسوياء أم من المنحرفين؟.. وفي هذا الخضم العميق يبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة، أو في حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة؛ لا لأن العلوم المكتسبة قد أثبتت ذلك، ولكن لمجرد وجود إشارة إلى تلك الحقيقة في كتاب الله الخالق أو في سنة رسوله ﷺ. ونحن في هذه الحالة نكون قد انتصرنا للعلم بالقرآن الكريم أو بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولم ننتصر بالعلم لأي منهما.

أما باقي الآيات الكونية الكريمة التي تعرض لها القرآن الكريم ـ وأغلبها من **الآيات الوصفية** ـ فلا يجوز أن يوظف في الاستشهاد على سبقها العلمي إلا الحقائق القطعية الثابتة التي لا رجعة فيها، وبالضوابط المنهجية التالية:

١ ـ حسن فهم النص القرآني الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد تلك اللغة وأساليب التعبير فيها؛ وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزل بلسان عربي مبين. على ألا يخرج الدارس للنص القرآني باللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية، وعند الضرورة القصوى؛ ومن هنا فلا يمكن إثبات الإعجاز العلمي بتأويل النص القرآني أبداً.

٢ ـ فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ ـ إن وجدا ـ وفهم الفرق بين العام والخاص، وبين كل من المطلق والمقيد، والمجمل والمفصل من آيات هذا الكتاب الحكيم.

٣ ـ فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى الزمن الحاضر.

٤ ـ جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية الكريمة إن وجدت.

٥ ـ جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، ورد بعضها إلى بعض بمعنى فهم دلالة كل منها في ضوء الآخر؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما يفسره الصحيح من أقوال رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان من الواجب توظيف الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توفر ذلك.

٦ ـ مراعاة السياق القرآني للآية المتعلقة بإحدى القضايا الكونية دون اجتزاء للنص عما قبله وعما بعده، مع التسليم الكامل بأن من طبيعة القرآن الكريم إيراد العديد من الحقائق المتتابعة كما هو الحال في آيات القسم والتي قد لا تكون بالضرورة مرتبطة ببعضها البعض.

٧ ـ مراعاة قاعدة: أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٨ ـ عدم التكلف أو محاولة لي أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ وذلك لأن القرآن الكريم أعز علينا وأكرم من ذلك؛ لأنه كلام الله الخالق وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق الكامل الشامل المحيط بكل علم آخر، وهو العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٩ ـ الحرص على عدم الدخول في التفاصيل العلمية الدقيقة التي تخدم قضية الإعجاز العلمي للآية أو الآيات القرآنية الكريمة من مثل المعادلات الرياضية المعقدة، والرموز الكيمائية الدقيقة، إلا في أضيق الحدود اللازمة لإثبات ذلك.

١٠ - عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة كالذات الإلهية، والروح، والملائكة، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار وغيرها، والتسليم بالنصوص الواردة فيها تسليماً إيمانياً كاملاً انطلاقاً من الإيمان بكتاب الله - تعالى - وبسنة رسوله ﷺ، ويقيناً راسخاً بعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيبيات المطلقة.

١١ - التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة، وأنها لا تحتاج هذه السنن الدنيوية الرتيبة، فهي كما وصفها ربنا ﷻ أمر فجائي منه بـ: كُنْ فَيَكُونُ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وعلى الرغم من ذلك فإن الله ﷻ من رحمته بنا قد أبقى لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء أعداداً كثيرة من الشواهد الحسية التي تقطع بفناء الكون وبحتمية الآخرة، وأن الإشارة إلى تلك الشواهد الكونية لا يمكن أن تفسر بمحاولة التعرف على موعد الساعة لأنها من الغيبيات المطلقة التي لا يعلمها إلا الله؛ ولأنها لن تتم بالسنن الكونية المشاهدة في هذه الحياة الدنيا.

١٢ - توظيف الحقائق العلمية القاطعة في الاستشهاد على الإعجاز العلمي للآية أو الآيات القرآنية في الموضوع الواحد أو في عدد من الموضوعات المتكاملة؛ وذلك في جميع الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق، والإفناء، والبعث، التي يمكن فيها توظيف الآية أو الآيات القرآنية الكريمة أو الحديث النبوي الصحيح للارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة، مع التأكيد على أن الحقيقة العلمية لا تبطل مع الزمن،

ولكنها قد تزداد تفصيلاً وتوضيحاً باجتهاد العلماء جيلاً بعد جيل، لأن المعرفة العلمية إذا وصلت إلى مستوى الحقيقة أو القانون فهي لا تتغير، ولكن قد تزداد إيضاحاً. وحقائق العلوم المكتسبة جزئية، وقوانينه كذلك جزئية لأنها تعبر عن حقيقة محددة. ومن طبيعة العلوم المكتسبة النمو المطرد مع استمرار مجاهدة العلماء في توضيح ما سبقت معرفته دون إلغائه.

١٣ ـ **ضرورة التمييز بين المحقق لدلالة النص القرآني والناقل له** مع مراعاة التخصص الدقيق في مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية الكريمة **(التحقيق العلمي)**؛ لأن هذا مجال تخصصي على أعلى مراحل التخصص لا يجوز أن يخوض فيه كل خائض، كما لا يمكن لفرد واحد أن يغطي كل جوانب الإعجاز العلمي في أكثر من ألف آية قرآنية صريحة بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة؛ خاصة وأن هذه الآيات تغطي مساحة هائلة من العلوم المكتسبة تمتد من علم الأجنة إلى علم الفلك وما بينهما من مختلف مجالات العلوم والمعارف المكتسبة: العلمية منها والإنسانية. **وعلى ذلك فإن من الواجب رد كل قضية إلى محققيها من المتخصصين بوضوح وإثبات كاملين.**

١٤ ـ التأكيد على أن ما توصل إليه المحقق العلمي في فهم دلالة الآية الكريمة ليس منتهى الفهم لها؛ لأن القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

١٥ ـ اليقين بأن النص القرآني الكريم قد ينطبق على حقيقة علمية ثابتة، ولكن ذلك لا ينفي مجازاً مقصوداً، كما أن الآية القرآنية الكريمة قد تأتي في مقام التشبيه أو المجاز وتبقى صياغة الآية دقيقة دقة فائقة من الناحية العلمية وإن لم تكن تلك الناحية مقصودة لذاتها؛ لأن كلام الله الخالق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

١٦ ـ الأخذ في الاعتبار إمكانية الانطلاق من الآية القرآنية الكريمة للوصول إلى

حقيقة كونية لم يتوصل العلم المكتسب إلى شيء منها بعد، انطلاقاً من الإيمان الكامل بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية، وأنه كله حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

١٧ ـ عدم التقليل من جهود العلماء السابقين في محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة الآيات الكونية في حدود المعلومات التي كانت متاحة لهم في زمانهم؛ وذلك لأن الآية الكونية الواردة في كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد حتى يظل القرآن الكريم مهيمناً على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها. وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

١٨ ـ ضرورة التفريق بين قضيتي «**الإعجاز العلمي**» و«**التفسير العلمي**» للقرآن الكريم، فالإعجاز العلمي يقصد به «إثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاول من القرون. وفي زمن لم يكن لأي من البشر إمكانية الوصول إلى تلك الحقيقة عن طريق العلوم المكتسبة أبداً».

وأما التفسير فهو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيها المفسر فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، والمُعَوَّل عليه في ذلك هو نيته. وهنا يجب التأكيد على أن الخطأ في التفسير ينسحب على المفسر، ولا يمس جلال القرآن الكريم.

١٩ ـ اليقين في صحة كل ما جاء بالقرآن المجيد؛ لأنه كلام الله الخالق، المحفوظ بحفظ الله على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى أن يشاء الله، والمحفوظ في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وعلى ذلك فلا يمكن لحقيقة كونية أن تصطدم بحق قرآني أبداً، فإذا حدث وبدا لدارس القرآن شيء من ذلك فلا بد من وجود خلل ما؛ إما في صياغة الحقيقة العلمية أو في فهم الدارس للنص القرآني الكريم.

٢٠ ـ يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية في ذلك والتجرد له من كل غاية، وتذكر قول المصطفى ﷺ: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[١].

ثالثاً: مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

من مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يلي:

١ ـ إن القرآن الكريم أنزل إلينا لنفهمه، والآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً في إطار اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ، انطلاقاً من شمول الدلالة القرآنية، ومن كلية المعرفة التي لا تتجزأ.

٢ ـ إن الدعوة بالإعجاز العلمي في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هي الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية ـ وقد فتن الناس فيه بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، ونبذ أغلب أهل الأرض الدين وراء ظهورهم ونسوه، وأنكروا الخلق والخالق، كما أنكروا البعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك من الغيبيات؛ لأن هذه الأصول قد شوهت في معتقداتهم تشويهاً كبيراً ولم تعد مقنعة لهم، أو دفعت بالبعض منهم إلى التعصب الأعمى دون أدنى بصيرة، والانطلاق بهذه العصبية العمياء لمحاربة الحق وأهله متمثلاً في الإسلام العظيم كما تكامل وحفظ في بعثة الرسول الخاتم ﷺ، وعلى ذلك فلم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين الإسلامي الحنيف قدر إقناع الإعجاز العلمي في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

٣ ـ الأصل في الحضارات أنها تتكامل فيما بينها ولا تتصارع، ولكن في زمن العولمة الذي نعيشه تحاول الحضارة المادية الغالبة ـ بما فيها من كفر بواح أو شرك صراح ـ أن تفرض من قيمها الهابطة، وممارساتها الساقطة،

---

(١) الترمذي (٢٩٥٠ ـ ٢٩٥١)، وأحمد (١/ ٢٣٣).

ومادياتها الجارفة على غيرها من الحضارات، وتوظف في ذلك كل ما توفر لها من وسائل الغلبة المادية وأسبابها. وليس احتلال شراذم الصهاينة المجرمين لأرض فلسطين، وتجبرهم في تعذيب وإذلال أهل الأرض الأصليين، ومحاولات القضاء عليهم، وليس الغزو الغربي الأنجلو/أمريكي الجائر لكل من أفغانستان والعراق، ولا جرائم كل من الصرب والكروات على أرض البلقان، ولا الدعوات الباطلة بحتمية الصراع بين الحضارات، أو تبرير العديد من الجرائم والاعتداءات على حقوق الإنسان وعلى أراضي دول أعضاء في هيئة الأمم تحت مظلة الدعوى الباطلة المسماة «بالحرب ضد الإرهاب»، أو الدعاوى الكاذبة تحت مسمى «الخوف من الإسلام» ليس كل ذلك إلا حلقات في هذا المخطط الشيطاني اللعين. وقد أسقط الأعداء من أيدي المسلمين في هذه الأيام كل الوسائل المادية التي يمكن لهم الدفاع بها عن دمائهم وأعراضهم وأراضيهم وممتلكاتهم ودينهم ومقدساتهم، وذلك في سلسلة طويلة من المؤامرات التي بدأت باحتلال أراضي غالبية الدول المسلمة، والعمل على تغريبها، ثم السعي الدءوب من أجل إلغاء دولة الخلافة الإسلامية بعد إنهاكها وإضعافها حتى تم إسقاطها في الربع الأول من القرن العشرين (سنة ١٩٢٤م)، ثم العمل على تمزيق الأمة الإسلامية إلى أكثر من خمس وخمسين دولة ودويلة، ونهب كل خيراتها وثرواتها، وتنصيب أنماط من الحكومات المتعارضة عليها للحيلولة دون إمكانية توحدها، بل العمل الدءوب من أجل المزيد من تفتيتها في زمن التكتلات البشرية الكبيرة الذي نعيشه، ثم غرس كيان صهيوني غريب من حثالات الأمم ونفايات الشعوب في قلب الأمة لإفسادها، وإثارة الحروب والقلاقل والفتن بين أبنائها، ولترسيخ العداوات بين الأشقاء للحيلولة دون توحدهم، وإشاعة الأفكار الهدامة والسلوكيات المنحطة والأخلاقيات المنهارة لإخراج الأمة عن دينها وأخلاقها وقيمها وأعرافها، والعمل على المزيد من تغريبها لتيسير الهيمنة عليها.

ولم يبق بأيدي أمة الإسلام من طوق للنجاة في زمن الغربة الذي نعيشه إلا المحافظة على دينها؛ هذا الدين الخاتم الذي لا يرتضي ربنا ﷻ من عباده ديناً سواه وهو وسيلة الدفاع الوحيدة التي بقيت بين أيدى مسلمي اليوم لحماية أنفسهم ولإنقاذ غيرهم من الأمم الضائعة من حولهم، والتي تهدد العالم كله بالدمار.

٤ - إن كلًّا من الإسلام والمسلمين يتعرض اليوم لهجوم شرس في كافة وسائل الإعلام بغير حق. والقائمون على تلك الوسائل من غلاة الصهاينة وغلاة الصليبيين، وأعداء الدين، ومن الشواذ جنسياً وسلوكياً والداعين إلى ذلك علناً بلا أدنى حياء أو خجل، هؤلاء جميعاً ينكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن الكريم، ونبوة خاتم المرسلين ﷺ أو ينكرون الدين كلية في وقاحة سافرة. وأهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا الهجوم هو إثبات الإعجاز العلمي في كل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة البالغة والمنطق السوي.

٥ - إن العالم اليوم يتحرك في اتجاه كارثة كبرى، وقودها تطور علمي وتقني مذهل، يُطْغِي أصحابه ويغريهم بإفناء وإبادة غيرهم في غيبة الوعي الديني الصحيح والالتزام الأخلاقي والسلوكي اللذين يرعيان حق الله وحقوق الأخوة الإنسانية حق رعايتها. والمخرج من ذلك هو الدعوة للدين الحق، ومن أوضح وسائل الدعوة إليه هو ما في كتاب الله - تعالى - وفي سنة رسوله ﷺ من إعجاز علمي واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. يقنع المنبهرين بالعلم ومعطياته في زمن تفجر المعارف العلمية الذي نعيشه كما قد لا يقنعهم أي أسلوب آخر.

٦ - إننا - معشر المسلمين - قصرنا كثيراً في التبليغ عن الله - تعالى - وعن رسوله ﷺ، وقد كلفنا بالتبليغ عنهما. ونحن اليوم نجني ثمار ذلك التقصير كله: حروباً طاحنة على كل أرض إسلامية من فلسطين والعراق إلى البلقان، ومنها إلى أرض الشيشان، وكشمير، وأفغانستان، وجنوب الفلبين،

وأراكان، والصومال، والسودان وغيرها من أراضي المسلمين الغارقة في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار (وإنا لله وإنا إليه راجعون). هذا بالإضافة إلى حصار لأكثر من دولة مسلمة، ومصادرة لبلايين الدولارات من أموال المسلمين، واحتلال عسكري مقنع لكل دولة من دول الجزيرة العربية وغالبية بلاد الشام والعراق، وأفغانستان، ومن الأراضي المغربية سبتة ومليلية وجزيرة ليلى، والعديد من الجزر الآسيوية.

وفي غمرة هذه المؤامرات الغربية لا ننسى مطاردة المسلمين في كل مكان من أماكن العالم، ومحاولة اعتقالهم وتجريمهم وإذلالهم، وتشويه سمعتهم بوصفهم بالإرهاب تارة وبالتخلف أخرى، وليس ببعيد عن الأذهان ما يجري للمسلمين اليوم من إذلال وامتهان وتجاوزات لكل حقوق الإنسان في معتقلات وسجون كل من الولايات المتحدة والبحر الكاريبي من مثل (معتقل جوانتانامو)، والعراق من مثل (سجن أبو غريب) وأفغانستان وغيرها.

٧ - إن في إثارة قضية الإعجاز العلمي بكل من القرآن الكريم، وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ استنهاضاً لعقول المسلمين، واستثارة للتفكير الإبداعي فيها، وتشجيعاً على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلفت فيها الأمة مؤخراً تخلفاً كبيراً، في الوقت الذي تقدمت فيه دول العالم الصناعية تقدماً مذهلاً حتى أصبح كم المعارف المتاح يتضاعف كل خمس سنوات، وتتجدد تقنياته مرة كل ثلاث سنوات تقريباً، وبذلك أخذت الهوة الفاصلة بيننا وبينهم في مجال العلوم والتقنية تزداد اتساعاً وعمقاً يوماً بعد يوم، وأصبحت مخاطر ذلك علينا تتضاعف مع تزايد تلك الهوة عمقاً واتساعاً.

هذا بالإضافة إلى حاجة العلوم المكتسبة اليوم إلى **التأصيل الإسلامي الدقيق** إنصافاً لكل من العلم والدين، وذلك لأن هذه المعارف لم تنطلق في بدء عصر النهضة إلا بعد معارك شرسة بين الكنيسة وطلاب العلم، وقد انتهت

هذه المعارك بهزيمة منكرة للكنيسة فانطلقت العلوم المكتسبة كلها في الغرب من منطلقات مادية بحتة، منكرة أو متجاهلة كل القضايا الغيبية، فأنكرت الدين والروح والأخلاق والقيم، وتقدمت علمياً وتقنياً تقدماً مذهلاً دون فهم لرسالة الإنسان في هذه الحياة مما يشكل واحدة من أكبر الكوارث التي تواجه عالم اليوم، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة: ١].

٨ ـ إن القرآن الكريم نزل للناس كافة: عربهم وعجمهم وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

ومعنى الآية الكريمة أن القرآن الكريم بلاغ لكل الناس في كل مكان وزمان. ويؤكد ربنا ـ عز من قائل ـ هذا المعنى الكريم بقوله الجليل مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ آمراً إياه بأمره:

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وإذا كان جانب الإعجاز اللغوي ميسراً للعرب كي يفهموه، فلا بد وأن يكون في القرآن الكريم من الجوانب الأخرى الميسرة لغير العرب كي يؤمنوا به. وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

الفصل السادس

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: الحاضر والآفاق

في العقود الأربعة الماضية نشط المشتغلون بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم نشاطاً غير مسبوق، وتأسس العديد من المنظمات والجمعيات العلمية التي اهتمت بهذه القضية، وكان منها ما يلي:

أولاً: في مصر:

١ ـ لجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

في الستينات من القرن العشرين تشكل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، واهتمت إحدى لجانه بالقرآن الكريم، وقامت هذه اللجنة بإعداد «**المنتخب في تفسير القرآن الكريم**» وهو تفسير تميز بإيجازه، وأسلوبه العصري السهل المبسط الواضح العبارة البعيد عن الخلافات المذهبية، والمصطلحات الفقهية المتخصصة حتى تسهل ترجمته إلى اللغات الأجنبية. وكانت أبرز مميزات هذا «المنتخب» وفرة التعليق العلمي على عدد غير قليل من الآيات الكونية في الهامش، وذلك لأن «لجنة القرآن والسنة» ضمت إليها عدداً من الخبراء في مختلف العلوم المكتسبة كان منهم علماء الفلك، والحياة، والطب، والهندسة، والمتخصصين في غير ذلك من العلوم والفنون بالإضافة إلى جهابذة علماء التفسير والفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والتاريخ، فجاء «المنتخب» تلبية لحاجة ملحة في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، وفاتحة خير لتجدد الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

وفي سنة ١٤١٨هجرية (١٩٩٧م) صدر قرار وزير الأوقاف المصري ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بإنشاء لجنة خاصة بالإعجاز العلمي في القرآن

الكريم والسنة النبوية المطهرة عرفت باسم: «لجنة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة» وعقدت اللجنة جلستها الأولى في ٢٧ من رجب ١٤١٨هجرية (الموافق ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩٩٧ ميلادية).

وقد قامت اللجنة بمراجعة التفسير العلمي للآيات الكونية في كتاب الله، وتعد الآن لنشر كتاب بتفسير هذه الآيات قبل إعادة طباعة «المنتخب» في طبعة جديدة تضم هذه الإضافات.

هذا، وقد جاء في مقدمة الطبعة الأولى من «**المنتخب في تفسير القرآن الكريم**» ما يلي: «وسوف يتلو هذا التفسير **الوجيز** تفسير آخر **وسيط** في شيء من البسط يعنى فيه بمزيد من البحث والنظر، واستخلاص العبر والآداب والتعاليم، والتوجيهات التي تأخذ بيد المسلمين لينهضوا ويكيفوا حياتهم على ما تقتضيه آيات هذا الذكر الحكيم من أخذ بأسباب القوة والعزة والكرامة، ويشار فيه إلى ما ترشد إليه الآيات من نواميس الحياة وأسرار الكون ووقائعه العلمية التي لم تعرف في العصور الأخيرة ـ عصور الكشف العلمي ـ ولا يمكن أن يكون القرآن الكريم قد أشار إليها إلا لأنه ليس من كلام البشر ولكنه من كلام خلاق القوى والقدر، الذي وعد بذلك في محكم هذا الكتاب فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ والله ولي التوفيق».

ولعل ما تعده لجنة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة الآن بالتعاون مع «لجنة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة» بالمجلس هو ما سوف يتبلور قريباً إن شاء الله ـ تعالى ـ فيما اقترحته اللجنة باسم «**التفسير الوسيط**».

٢ ـ وقف الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

في أوائل سنة ١٤١٩ هجرية (١٩٩٨ ميلادية) أوقف المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري مبلغ أربعمائة ألف جنيه مصري لخدمة بحوث القرآن الكريم خاصة في مجال إعجازه العلمي بالمشاركة مع بنك فيصل الإسلامي المصري، والذي التزم باستثمار هذا المبلغ، وبالمشاركة الوقفية بتقديم عائد

مدعوم قدره خمسة وسبعون ألف جنيه مصري في أول ديسمبر من كل عام، بالإضافة إلى التزامات أخرى منصوص عليها في حجة الوقف التي صدر بقبولها وبيان أحكامها قرار شيخ الأزهر رقم ٣٠٤ لسنة ١٤١٩ هجرية (١٩٩٨ميلادية)، ورقم ١٥٥٥ لسنة ١٤٢٢ هجرية (٢٠٠١ ميلادية).

وقد قامت اللجنة بعمل «كشاف لمؤلفات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم» كقاعدة بيانات تعين العاملين في هذا المجال، و«الكشاف» تحت الطبع الآن ويشمل ملخصات لقرابة المئتين وخمسين كتاباً في مختلف مجالات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

كذلك قامت اللجنة بالإعلان عن عدد من الجوائز المالية في صورة مسابقات محلية وعالمية تعقد في مجال خدمة بحوث القرآن الكريم وخاصة في مجال الإعجاز العلمي، أو في صورة منح دراسية لدرجتي الماجستير والدكتوراه، أو على هيئة إعانات لنشر بعض البحوث، أو في أي صورة أخرى تراها لجنة بحوث القرآن الكريم بمجمع البحوث الإسلامية.

٣ ـ جمعية الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

أنشئت هذه الجمعية في سنة ١٤٠٧هـ (١٩٨٨م) للعمل على تنشيط البحث في الإعجاز العلمي لكتاب الله ولسنة خاتم أنبيائه ورسله، وتشكيل اللجان اللازمة لذلك، وعقد المحاضرات والندوات، واللقاءات الفكرية في هذين المجالين، والاتصال بمختلف الجمعيات والهيئات المناظرة في الداخل والخارج.

وقد قامت الجمعية بنشر سلسلة كتب بعنوان (**كتاب الإعجاز في القرآن والسنة**) تضم أعداداً من المحاضرات والندوات التي ألقيت أو أديرت في الجمعية. وقد صدر من هذه السلسلة إلى الآن سبعة أعداد.

كذلك تقيم الجمعية مسابقة سنوية في قضية من قضايا الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عقد منها حتى الآن خمس مسابقات.

٤ ـ نقابة أطباء مصر:

وقد عقدت العديد من المؤتمرات الطبية التي ناقشت قضايا الإعجاز في كل من القرآن والسنة، واستضافت أول مؤتمر دولي لتلك القضايا.

٥ ـ رابطة الجامعات الإسلامية:

وقد عقدت عدداً من المؤتمرات تحت عنوان «التوجيه الإسلامي للعلوم» بدءاً من أكتوبر١٩٩٢م إلى اليوم، وقامت بنشر أعمال تلك المؤتمرات.

٦ ـ الجمعية الخيرية الإسلامية:

وقد عقدت العديد من المحاضرات والندوات في موضوع الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، وقامت بنشر أعمال تلك الندوات.

٧ ـ مشروع (الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم):

ويقوم على هذا المشروع المهندس مجد مدبولي غريب والذي أقام العديد من المسابقات في هذا المجال بدءاً من سنة ١٤١٠ هجرية (١٩٩٠م) وإلى اليوم.

ثانياً: في المملكة العربية السعودية:

١ ـ الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

تأسست هذه الهيئة سنة ١٤٠٦هجرية (١٩٨٥م) بناءً على قرار المجلس الأعلى العالمي للمساجد والتابع لرابطة العالم الإسلامي، واتخذت مبنى الرابطة بمكة المكرمة مقراً لها. وقد أقامت الهيئة فروعاً لها في داخل المملكة وخارجها تحقيقاً لأهدافها المتمثلة في نشر أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وذلك بوضع القواعد والمناهج وطرق البحث العلمي التي تضبط الاجتهادات في هذه القضية، وتعمل على إعداد جيل من العلماء والباحثين فيها وعلى عقد المؤتمرات والندوات بالتعاون مع الجامعات والهيئات العلمية من أجل تحقيق ذلك، والقيام بنشر نتائج هذا النشاط بكل الوسائل الإعلامية الممكنة.

وقد تحولت هذه الهيئة من هيئة سعودية إلى هيئة عالمية في سنة ١٤٢٣

هجرية (٢٠٠١م). وعقدت الهيئة سبعة مؤتمرات دولية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة (في إسلام أباد ١٤٠٨هجرية/ ١٩٨٧م، وفي داكار/ السنغال ١٤١٢ هجرية/ ١٩٩١م، وفي موسكو سنة ١٤١٤ هجرية/ ١٩٩٣م، وفي ناندونج/ أندونسيا ١٤١٥ هجرية/ ١٩٩٤م، وفي موريتانيا سنة ١٤١٩ هجرية/ ١٩٩٩م، وفي لبنان ١٤٢١ هجرية/ ٢٠٠١م، وفي دبي غرة صفر سنة ١٤٢٥ هجرية/ ٢٢ مارس ٢٠٠٤م).

كذلك شاركت الهيئة في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والطبية المحلية والدولية، وأصدرت أكثر من (٢٨) كتيباً وعشرات النشرات، وعشرين عدداً من مجلتها الفصلية «الإعجاز العلمي»، وأعدت موقعاً لها على شبكة المعلومات الدولية (الشبكة العنكبوتية) وأصدرت عدداً من الأقراص المدمجة وأشرطة الفيديو. وللهيئة لجنة نسائية نشطة، وفروع عديدة في داخل المملكة وخارجها أهمها فروع: القاهرة، لبنان، وتركيا.

٢ ـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (المدينة المنورة):

وقد عقد عدة ندوات عن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وله عدد من النشرات في هذين المجالين.

ثالثاً: في السودان:

نشط عدد من أساتذة الجامعات السودانية بإجراء بحوث متميزة في قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وذلك من خلال «**المركز العالمي لأبحاث الإيمان**» والذي دعا لاجتماع عقد بالخرطوم في ٣، ٤ من شعبان ١٤٢٣ هجرية (الموافق ٢٠، ٢١ من أكتوبر ٢٠٠١م) لبحث التنسيق فيما بين الجهات العاملة في مجال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم حضره ممثلون عن الجمعيات والمنظمات السعودية والمصرية والسودانية. وقد تم في هذا الاجتماع وضع ميثاق للتنسيق والتكامل بين مختلف الهيئات والمنظمات والمراكز المهتمة بقضية الإعجاز العلمي في كل من القرآن والسنة. كذلك تقوم مجلة «**تفكر**» نصف السنوية

والمنبثقة عن معهد إسلامية المعرفة بجامعة الجزيرة والتي بدأت في الصدور ابتداءاً من ١٤٢٠ هجرية/ ١٩٩٩ ميلادية بنشر عدد من بحوث الإعجاز العلمي في القرآن.

رابعاً: في الأردن:

١ ـ **الجمعية الأردنية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة**: انبثاقاً من جمعية المحافظة على القرآن الكريم تم تأسيس الجمعية الأردنية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في سنة ١٤٢٩ هجرية (٢٠٠٨ ميلادية) وكانت جمعية المحافظة على القرآن الكريم قد بدأت الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في كتاب الله منذ عدة سنوات، وعقدت لذلك عدة ندوات ومحاضرات وجلسات نقاشية، كما نشرت العديد من المقالات في مجلتها «الفرقان»، وهي مجلة شهرية تقوم على خدمة القرآن وعلومه.

٢ ـ **جامعة الزرقاء الأهلية**: دعت جامعة الزرقاء الأهلية إلى عقد مؤتمر عالمي للإعجاز العلمي في القرآن الكريم في الفترة من ١٨ ـ ٢٠ رجب ١٤٢٦ هجرية (الموافق ٢٣ ـ ٢٥ من أغسطس، سنة ٢٠٠٥ ميلادية)، وتبنّت تدريس مقرر اختياري لطلابها في هذا المجال.

وكذلك تنوي جامعة اليرموك وعدد من الجامعات الأردنية الأخرى تبني برنامج دراسي يطرح لجميع طلاب الجامعة كوسيلة من وسائل نشر هذا الفكر واكتشاف المواهب الشابة القادرة على الاستمرار فيه في مستوى الدراسات العليا.

٣ ـ المعهد العالي للإعجاز القرآني: وقد تم افتتاحه رسمياً في يوم السبت ٢١ من ربيع الأول سنة ١٤٢٦ هجرية (الموافق ٣٠ أبريل سنة ٢٠٠٥ ميلادية).

والمعهد يعد دورات تدريبية في الإعجاز القرآني ذات ثلاثة مستويات: (ابتدائية، ومتقدمة، ومتخصصة)، ويصدر مجلة بعنوان «آيات» للعناية بقضية الإعجاز العلمي في كل من القرآن والسنة.

خامساً: العراق:

عقد المؤتمر الأول للإعجاز القرآني ببغداد في الفترة من ٢١ ـ ٢٦ رمضان ١٤١٠هـ (١٦ ـ ٢١/ نيسان ١٩٩٠م) تحت رعاية وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالجمهورية العراقية، ثم توقف هذا النشاط بعد الغزو الأنجلو/أمريكي الغاشم لأراضي العراق، وهي دولة عضو في الأمم المتحدة دون أدنى مبرر مشروع.

سادساً: في المغرب:

١ ـ الهيئة المغربية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

تأسست الهيئة المغربية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في سنة ١٤٢٥ هجرية (الموافق ٢٠٠٤ ميلادية)، ونظمت الندوة الوطنية الأولى للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمدينة الدار البيضاء وذلك في يومي ٢٧، ٢٨، نوفمبر سنة ٢٠٠٤ ميلادية. كما عقدت عدداً من المحاضرات في العامين ٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٥م، في مدن: الدار البيضاء، الرباط، القنيطرة، طنجة، فاس، ومكناس.

٢ ـ شعبة الدراسات الإسلامية بجامعة محمد الخامس ـ الرباط: تهتم هذه الشعبة بالدراسات القرآنية وعقدت ندوات بهذا الخصوص كان من أحدثها الندوة العلمية المعنونة: «**القرآن الكريم وأبعاده التربوية والحضارية**» والتي عقدت في أيام ٧ ـ ٩ من شهر صفر سنة ١٤٢٦ هجرية (الموافق ١٧ ـ ١٩ من شهر مارس سنة ٢٠٠٥ ميلادية)، وسبق ذلك عقد ندوة «**القرآن الكريم ومناهج تدريسه**» على عدة حلقات، كانت حلقتها الثامنة بمدينة طنجة في الفترة من ١٣ إلى ١٦ رمضان سنة ١٤١٤ هجرية (الموافق ٢٤ ـ ٢٧ من فبراير سنة ١٩٩٤ ميلادية).

٣ ـ شعبة الفيزياء بجامعة عبد الملك السعدي بمدينة تطوان: وقد دعت هذه الشعبة لعقد المؤتمر الوطني الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة،

والذي عُقد في يومي ١٩، ١٨ من جمادى الأول سنة ١٤٢٦ هجرية (الموافق ٢٦، ٢٥ من شهر يونيو سنة ٢٠٠٥ ميلادية).

٤ ـ جمعية الدراسات القرآنية (طنجة): عقدت هذه الجمعية عدة ندوات للعناية بالقرآن الكريم، منها: «**ندوة القرآن الكريم ومناهج تدريسه**» والتي عقدت في شهر يوليو سنة ١٩٩١م، وندوة «**مناهج تدريس العلوم الإسلامية في المراكز العلمية العتيقة ودور القرآن الحديثة: الواقع والآفاق**» والتي عقدت في شهر رمضان المبارك عام ١٤١٤هجرية (فبراير ١٩٩٤م) وأوصت بإنشاء معهد عال للدراسات القرآنية بمدينة طنجة.

٥ ـ ملتقى أساتذة شعب الدراسات الإسلامية بكليات الآداب والعلوم الإنسانية وجامعة القرويين والمدارس العليا: والذي دعا إلى عدد من الاجتماعات والندوات، منها ما عقد بمدينة تطوان أيام ١٥ ـ ١٧ يوليو سنة ١٩٩٣م، وفي أيام ١٣ ـ ١٦ من رمضان المبارك سنة ١٤١٤هجرية (الموافق ٢٤ ـ ٢٧ من فبراير سنة ١٩٩٤م).

سابعاً: في الكويت:

١ ـ يوجد بالكويت جمعيتان إسلاميتان مهتمتان بالقرآن والسنة، هما: «جمعية الإصلاح الاجتماعي» وصوتها مجلة «المجتمع» الأسبوعية، وذراعها الأيمن «بيت القرآن»، و«جمعية إحياء التراث الإسلامي» وكلًّا من الجمعيتين يفكر في إنشاء لجنة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٢ ـ المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية: وقد عقدت العديد من المؤتمرات الطبية التي ناقشت عدداً من قضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

ثامناً: في دولة الإمارات العربية المتحدة:

يهتم العديد من «جمعيات القرآن الكريم» بدولة الإمارات العربية المتحدة، وفي مقدمتها مؤسسة «جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم»، و«شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا» بقضية الإعجاز العلمي في كل من القرآن الكريم والسنة

النبوية المطهرة، وقد أنشأت شبكة جامعة عجمان كرسيّاً لهذا التخصص يُعرف باسم «**كرسي الإعجاز العلمي**» وهي بذلك تعتبر أول جامعة في العالمين العربي والإسلامي تحقق هذا الأمل للمسلمين.

تاسعاً: في اليمن:

أنشئت جامعة «الإيمان» في صنعاء، وهي جامعة إسلامية تهتم في مناهجها بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

عاشراً: في لبنان:

أطلقت جامعة الجنان بمدينة طرابلس في يوم ٨/ ١١/ ١٤٢٩هـ (الموافق ٦/ ١١/ ٢٠٠٨م) إنشاء «**دبلوم الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**» من أجل تحقيق النهضة العلمية الإيمانية المرجوة للدفاع عن الإسلام بلغة العصر.

حادي عشر: في العالم الغربي:

هناك بدايات للاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في العديد من دول العالم الغربي من أبرزها:

١ - مشروع المعهد الثقافي الإسلامي بسويسرا (A.C.F.M.S)، ويهدف لإقامة متحف باسم «**متحف التواصل الحضاري للتعريف بالإسلام**» يركز على قضيتي: «الإعجاز العلمي في القرآن والسنة» و«إسهام علماء المسلمين الأوائل في تطور العلوم والتقنية» وذلك بمدينة (لا شو دي فوند) وعنوان المعهد كما يلي: A.C.F.M.S. 109, Avenue Leopold Robert, 2300 (La chaux - de Fonds, Suisse).

٢ - جمعية الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بولاية كاليفورنيا: أنشئت هذه الجمعية في سنة ١٩٩٤ ميلادية بمدينة (أورانج كاونتي) بولاية كاليفورنيا بواسطة عدد من العلماء والأطباء المسلمين العاملين بالولاية، ومنذ تأسيسها تقوم الجمعية بعقد الندوات والمحاضرات العلمية بطريقة دورية، وتخطط

لإصدار مجلة ناطقة باسمها وإنشاء معهد للدراسات القرآنية، ولكن تعثرت هذه المشروعات نتيجة للتضييق على العمل الإسلامي بالغرب بعد أحداث ١١/٩/٢٠٠١م.

آفاق قضية الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

من الآمال المعقودة على بدء الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ما يلي:

١ ـ الدعوة إلى تنسيق الجهود بين مختلف الهيئات والجمعيات والمنظمات العاملة في هذا المجال، وذلك في توزيع الأدوار، وعقد الندوات والمؤتمرات، وإصدار المجلات والنشرات والكتب، وفي إنتاج البرامج الإعلامية المختلفة.

٢ ـ العمل على وضع مناهج لتدريس مادة الإعجاز العلمي في مختلف مستويات ومراحل التعليم (من المرحلة الابتدائية إلى مراحل الدراسات العليا).

٣ ـ تشجيع الدارسين للدرجات العلمية العليا والباحثين على اتخاذ الآيات الكونية في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ منطلقاً لبحوثهم البحتة والتطبيقية.

٤ ـ دعوة كل من الباحثين وطلاب الدراسات العليا على الانطلاق من كل من آيات القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ في محاولة جادة للوصول إلى حقائق علمية جديدة.

٥ ـ العمل على ترجمة النتائج المتميزة من بحوث الإعجاز العلمي في كل من القرآن والسنة إلى عدد من اللغات الأجنبية.

٦ ـ الدعوة إلى عقد المؤتمرات والندوات الدولية والمحلية حول قضايا الإعجاز العلمي في كل من القرآن والسنة في مختلف دول العالم.

٧ ـ التعاون من أجل إصدار تفسير جديد للقرآن الكريم يوفي الآيات الكونية حقها، ثم إصدار تراجم لهذا التفسير مع معاني القرآن الكريم من أجل

تصحيح الأخطاء الواردة في التراجم القديمة بخصوص هذه الآيات الكونية، وتكرار هذا العمل بالنسبة لأحاديث رسول الله ﷺ.

٨ - التنسيق بين المواقع المتعددة لقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنيت) وتقليل التكرار، وتصحيح الأخطاء، وإلغاء الضعيف من القضايا.

٩ - التعاون من أجل إصدار سلاسل من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للأطفال على مستوى عالٍ من حسن الإخراج والجودة في الطباعة وحسن اختيار الصور.

الفصل السابع

نماذج من آيات الإعجاز العلمي والتشريعي والتاريخي في القرآن الكريم

أولاً: من آيات الإعجاز العلمي:

(١) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١]

جاءت هذه الآية الكريمة في مطلع الربع الأخير من سورة «النازعات»، وهي سورة مكية، تعنى كغيرها من سور القرآن المكي بقضية العقيدة، ومن أسسها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وغالبية الناس منشغلون عن الآخرة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وعن قضايا البعث، والحساب، والجنة، والنار وهي محور هذه السورة.

وتبدأ السورة الكريمة بقسم من الله ـ تعالى ـ بعدد من طوائف ملائكته الكرام، وبالمهام الجسام المُكلَّفين بها، أو بعدد من آياته الكونية المُبهِرة، على أن الآخرة حق واقع، وأن البعث والحساب أمر جازم، وربنا ـ تبارك وتعالى ـ غني عن القسم لعباده، ولكن الآيات القرآنية تأتي في صيغة القسم لتنبيه الناس إلى خطورة الأمر المُقسم به، وأهميته أو حتميته.

ثم تعرض الآيات لشيء من أهوال الآخرة مثل (الراجفة والرادفة) ـ وهما الأرض والسماء ـ وكل منهما يُدمَّر في الآخرة، أو النفختان الأولى التي يموت على إثرها كل حي، والثانية التي يحيا على إثرها كل ميت بإذن الله. وتنتقل الآيات بعد ذلك إلى وصف حال الكفار، والمشركين، والملاحدة المتشككين،

والعاصين لأوامر رب العالمين في ذلك اليوم الرهيب، وقلوبهم خائفة وجلة، وأبصارهم خاشعة ذليلة، بعد أن كانوا ينكرون البعث في الدنيا، ويتساءلون عنه استبعاداً له، واستهزاءً به قائلين: هل في الإمكان أن نُبعث من جديد بعد أن تبلى الأجساد، وتُنخَر العظام؟ وترد الآيات عليهم حاسمة قاطعة بقرار الله الخالق، أن الأمر بالبعث صيحة واحدة، فإذا بكافة الخلائق قيام يبعثون من قبورهم ليواجهوا الحساب، أو كأنهم حين يبعثون يظنون أنهم عائدون للدنيا مرة ثانية فيفاجئون بالآخرة...!

ثم تلمح الآيات إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، وذلك من قبيل مواساة رسولنا ﷺ في الشدائد التي كان يلقاها من الكفار، ومن أجل تحذيرهم مما حل بفرعون وبالمُكذِّبين من قومه من عذاب، وجعل ذلك عبرة لكل عاقل يخشى الله ـ تعالى ـ ويخاف حسابه.

وبعد ذلك تتوجه الآيات بالخطاب إلى منكري البعث من كفار قريش، وإلى الناس عامة بسؤال تقريعي توبيخي: هل خلق الناس ـ على ضآلة أحجامهم، ومحدودية قدراتهم، وأعمارهم، وأماكنهم من الكون ـ أشد من خلق السماء وبنائها، ورفعها بلا عمد مرئية إلى هذا العلو الشاهق؟ مع ضخامة أبعادها، وتعدد أجرامها، ودقة المسافات بينها، وإحكام حركاتها، وتعاظم القوى الممسكة بها وإظلام ليلها، وإنارة نهارها؟ وهل خلق الإنسان أشد من دحو الأرض، وإخراج كل من مائها ومرعاها منها بعد ذلك، وإرساء الجبال عليها، وإرساء الأرض بها؛ تحقيقاً لسلامتهم وأمنهم على سطح الأرض، ولسلامة أنعامهم ومواشيهم؟

وبعد الإشارة إلى بديع صنع الله في خلق السمٰوات والأرض كدليل قاطع على إمكانية البعث، عاودت الآيات الحديث عن القيامة وسمتها «بالطامة الكبرى»؛ لأنها داهية عظمى؛ تعم بأهوالها كل شيء، وتغطي على كل مصيبة مهما عَظُمت، وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسان أعماله من الخير والشر، ويراه مُدوَّناً في صحيفة أعماله، وبُرِّزَت جهنم للناظرين، فرآها كل إنسان عياناً بياناً، وحينئذٍ

ينقسم الناس إلى شقي وسعيد، فالشقي هو الذي جاوز الحد في الكفر والعصيان، وفضل الدنيا على الآخرة، وهذا مأواه جهنم وبئس المصير، والسعيد هو الذي نهى نفسه عن اتباع هواها انطلاقاً من مخافة مقامه بين يدَيْ ربه يوم الحساب، وهذا مأواه ومصيره إلى جنات النعيم بإذن الله.

وتختتم هذه السورة الكريمة بخطاب إلى رسول الله ﷺ مُتعلِّق بسؤال كفار قريش له عن الساعة متى قيامها؟ وترد الآيات بأن علمها عند الله الذي استأثر به، دون كافة خلقه، فمردُّها ومرجعها إلى الله وحده، وتقول لخاتم الأنبياء والمرسلين ـ ﷺ ـ: وأما دورك أيها النبي الخاتم والرسول الخاتم فهو إنذار من يخشاها، وهؤلاء الكفار والمشركون يوم يشاهدون قيامها، فإن هول المفاجأة سوف يمحو من الذاكرة معيشتهم على الأرض، فيرونها كأنها كانت ساعة من ليل أو نهار، بمقدار عشية أو ضحاها، احتقاراً للحياة الدنيا، واستهانة بشأنها أمام الآخرة. ويأتي ختام السورة مُتوافقاً مع مطلعها الذي أقسم فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على حقيقة البعث وحتميته، وأهواله وخطورته، لزيادة التأكيد على أنه أخطر حقائق الكون وأهم أحداثه؛ لكي يتم تناسق البدء مع الختام، وهذا من صفات العديد من سور القرآن الكريم.

وهنا يبرز التساؤل عن معنى دحو الأرض، وعلاقته بإخراج مائها ومرعاها، ووضعه في مقابلة مع بناء السماء ورفعها ـ على عظم شأن هذا البناء ـ، وعظم أمر ذلك الرفع كصورة واقعة لطلاقة القدرة المُبدِعة في الخلق، وقبل التعرض لذلك لا بد من استعراض الدلالة اللغوية للفظة «الدحو» الواردة في الآية الكريمة:

الدلالة اللغوية لدحو الأرض:

(الدَّحو) في اللغة العربية هو: المد والبسط والإلقاء، يقال: (دَحا) الشيء (يَدْحُوه) (دَحْواً) أي بسطه ومدَّه، أو ألقاه ودحرجه، ويقال: (دَحا) المطرُ الحصى عن وجه الأرض أي دحرجه وجرفه، ويقال: مر الفرس (يَدْحُو) (دَحْواً)

إذا جر يده على وجه الأرض، فيدحو ترابها و(مَدْحَى) النعامة هو موضع بيضها، و(أُدْحيها) موضعها الذي تفرخ فيه.

من شروح المفسرين للآية الكريمة:

- في شرح قوله ـ تعالى ـ: «﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما نصه: «فسَّره بقوله تعالى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، وقد تقدم في سورة فصلت أن الأرض خُلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، عن ابن عباس: دَحَاهَا ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقَّق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال، والسبل والآكام، فذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾».

- وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ: «﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: بسطها ومهَّدها لتكون صالحة للحياة، وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو. أَخْرَجَ حالٌ بإضمار (قد) أي: دحاها مُخرِجاً ﴿مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير عيونها، و﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ ما ترعاه الأنعام من الشجر والعشب، وما يأكله الناس من الأقوات والثمار، وإطلاق المرعى عليه استعارة».

- وذكر صاحب الظلال ـ يرحمه الله ـ: «ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها، بحيث تصبح صالحة للسير عليها، وتكوين تربة تصلح للإنبات...، والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع، أو ما ينزل من السماء، فهو أصلاً من مائها الذي تبخر ثم نزل في صورة مطر، وأخرج من الأرض مرعاها، وهو النبات الذي يأكله الناس والأنعام، وتعيش عليه الأحياء مباشرة أو بالواسطة».

- وجاء في (صفوة البيان لمعاني القرآن): «ودحا الأرض ـ بمعنى بسطها وأوسعها ـ، بعد ذكر ذلك الذي ذكره من بناء السماء، ورفع سمكها، وتسويتها، وإغطاش ليلها، وإظهار نهارها، وقد بين الله الدحو بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون، وإجراء الأنهار والبحار العظام. وَمَرْعَاهَا أي جميع

ما يقتات به الناس والدواب بقرينة قوله بعد: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾. وأخبرنا بعد ذلك بأنه هو الذي بسط الأرض، ومهدها لسكنى أهلها ومعيشتهم فيها. وقدم الخبر الأول لأنه أدل على القدرة الباهرة لعظم السماء، وانطوائها على الأعاجيب التي تحار فيها العقول. فبعدية الدحو إنما هي في الذكر لا في الإيجاد، وبجعل المشار إليه هو ذكر المذكورات من البناء وما عطف عليها لا أنفسها، لا يكون في الآية دليل على تأخر الدحو عن خلق السمٰوات وما فيها».

- وجاء في (صفوة التفاسير): «﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: والأرض بعد خلق السماء بسطها ومهدها لسكنى أهلها، ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: أخرج من الأرض عيون الماء المُتفجِّرة، وأجرى فيها الأنهار، وأنبت فيها الكلأ والمرعى مما يأكله الناس والأنعام».
- وجاء في (المنتخب في تفسير القرآن الكريم): «والأرض بعد ذلك بسطها ومهدها لسكنى أهلها، وأخرج منها ماءها بتفجير عيونها، وإجراء أنهارها، وإنبات نباتها ليقتات به الناس والدواب..».

وهذا الاستعراض يدل على أن المفسرين السابقين يجمعون على أن من معاني دحو الأرض، هو إخراج الماء والمرعى من داخلها، على هيئة العيون وإنبات النبات.

دحو الأرض في العلوم الكونية:

أولاً: إخراج كل ماء الأرض من داخلها:

كوكب الأرض هو أغنى كواكب مجموعتنا الشمسية في الماء، ولذلك يطلق عليه اسم (الكوكب المائي)، أو (الكوكب الأزرق)، وتغطي المياه نحو ٧١٪ من مساحة الأرض، بينما تشغل اليابسة نحو ٢٩٪ فقط من مساحة سطحها، وتُقدَّر كمية المياه على سطح الأرض بنحو ١٣٦٠ مليون كيلومتر مكعب ($١,٣٦ \times ١٠^{٩}$). وقد حار العلماء منذ القدم في تفسير كيفية تجمع هذا الكم الهائل من المياه على سطح الأرض، من أين أتى؟ وكيف نشأ؟

وقد وُضعت نظريات عديدة لتفسير نشأة الغلاف المائي للأرض، تقترح إحداها نشأته في المراحل الأولى من خلق الأرض، وذلك بتفاعل كلٍّ من غازي الأيدروجين والأوكسجين في حالتهما الذرية في الغلاف الغازي المحيط بالأرض، وتقترح ثانية أن ماء الأرض أصله من جليد المُذنَّبات، وترى ثالثة أن كل ماء الأرض قد أخرج أصلاً من داخل الأرض، وهو ما تؤكده الشواهد العديدة التي تجمَّعت لدى العلماء في زمن التقدم العلمي الذي نعيشه اليوم، ولا يزال خروجه مُستمِراً من داخل الأرض عبر الثورات البركانية.

ثانياً: إخراج الغلاف الغازي للأرض من داخلها:

بتحليل الأبخرة المتصاعدة من فوهات البراكين في أماكن مختلفة من الأرض، اتضح أن بخار الماء تصل نسبته إلى أكثر من ٧٠٪ من مجموع تلك الغازات والأبخرة البركانية، بينما يتكون الباقي من أخلاط مختلفة من الغازات التي تترتب حسب نسبة كل منها على النحو التالي: ثاني أكسيد الكربون، الإيدروجين، أبخرة حمض الإيدروكلوريك، حمض الكلور، النيتروجين، فلوريد الإيدروجين، ثاني أكسيد الكبريت، كبريتيد الإيدروجين، غازات الميثان والأمونيا وغيرها.

ويصعب تقدير كمية المياه المُندفِعة على هيئة بخار الماء إلى الغلاف الغازي للأرض من فوهات البراكين الثائرة، علماً بأن هناك نحو عشرين ثورة بركانية عارمة في المتوسط تحدث في خلال حياة كل فرد منا، ولكن مع التسليم بأن الثورات البركانية في بدء خلق الأرض كانت أشد تكراراً وعنفاً من معدلاتها الراهنة، فإن الحسابات التي أُجريت بضرب متوسط ما تنتجه الثورة البركانية الواحدة من بخار الماء من فوهة واحدة، في متوسط مرات ثورانها في عمر البركان، في عدد الفوهات والشقوق البركانية النشيطة والخامدة الموجودة اليوم على سطح الأرض، أعطت رقماً قريباً جداً من الرقم المحسوب بكمية المياه على سطح الأرض.

ثالثاً: الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي هي مصدر مياه وغازات الأرض:

ثبت أخيراً أن المياه تحت سطح الأرض توجد على أعماق تفوق كثيراً جميع التقديرات السابقة، كما ثبت أن بعض مياه البحار والمحيطات تتحرك مع رسوبيات قيعانها الزاحفة إلى داخل الغلاف الصخري للأرض بتحرك تلك القيعان تحت كتل القارات، ويتسرب الماء إلى داخل الغلاف الصخري للأرض عبر شبكة هائلة من الصدوع والشقوق التي تمزق ذلك الغلاف في مختلف الاتجاهات، وتحيط بالأرض إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين ٦٥ و١٥٠ كيلومتراً. ويبدو أن الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي هي مصدر رئيس للمياه الأرضية، وتلعب دوراً مهماً في حركة المياه من داخل الأرض إلى السطح وبالعكس؛ وذلك لأنه لولا امتصاصها للمياه ما انخفضت درجة حرارة انصهار الصخور، وهي إذا لم تنصهر لتوقفت ديناميكية الأرض، بما في ذلك الثورات البركانية، وقد ثبت أنها المصدر الرئيس للغلاف المائي والغازي للأرض. وعلى ذلك فقد أصبح من المقبول عند علماء الأرض أن النشاط البركاني الذي صاحب تكوين الغلاف الصخري للأرض في بدء خلقها هو المسؤول عن تكون كلٍ من غلافيها المائي والغازي، ولا تزال ثورات البراكين تلعب دوراً مهماً في إثراء الأرض بالمياه، وفي تغيير التركيب الكيميائي لغلافيها الغازي والصخري، وهو المقصود بدحو الأرض. وذلك نابع من حقيقة أن الماء هو السائل الغالب في الصهارات الصخرية على الرغم من أن نسبته المئوية إلى كتلة الصهارة قليلة بصفة عامة، فنسبة عدد جزيئات الماء إلى عدد جزيئات مادة الصهارة تصل إلى نحو ١٥٪، ولكن عندما تتبرد الصهارة الصخرية تبدأ مركباتها في التبَلْوُر بالتدريج، وتتضاغط الغازات الموجودة فيها إلى حجم أقل، وتتزايد ضغوطها حتى تفجر الغلاف الصخري للأرض بقوة تصل إلى مائة مليون طن على الفوهة البركانية الواحدة، فتشق ذلك الغلاف وتبدأ الغازات في التمدد، والانفلات من الذوبان في الصهارة الصخرية، ويندفع كلٌ من بخار الماء والغازات المُصاحِبة له والصهارة الصخرية إلى خارج فوهة البركان أو الشقوق المُتصاعِدة منها، مرتفعة إلى عدة كيلومترات لتصل إلى

كل أجزاء نطاق التغيرات المناخية (٨ ـ ١٨ كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر)، وقد تصل هذه النواتج البركانية في بعض الثورات البركانية العنيفة إلى نطاق التطبق (٣٠ ـ ٨٠ كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر). وغالبية مادة السحاب الحار الذي تتراوح درجة حرارته بين ٢٥٠ ـ ٥٠٠ درجة مئوية يعاود الهبوط إلى الأرض بسرعات تصل إلى ٢٠٠ كيلومتر في الساعة؛ لأن كثافته أعلى من كثافة الغلاف الغازي للأرض. والماء المُتكثِّف من هذا السحاب البركاني الحار الذي يقطر مطراً من بين ذرات الرماد التي تبقى عالقة بالغلاف الغازي للأرض لفترات طويلة، يجرف معه كميات هائلة من الرماد والحصى البركاني مُكوِّناً تدفُّقاً للطين البركاني الحار على سطح الأرض في صورة من صور الدحو. ومنذ أيام ثار بركان في إحدى جزر الفلبين، فغمرت المياه المُتكوِّنة أثناء ثورته بالكامل قرية مجاورة آهلة بالسكان. وقد يصاحب الثورات البركانية خروج عدد من الينابيع والنافورات الحارة، وهي ثورات دورية للمياه والأبخرة، شديدة الحرارة، تندفع إلى خارج الأرض بفعل الطاقة الحرارية العالية المخزونة في أعماق القشرة الأرضية. ويعتقد علماء الأرض أن وشاح كوكبنا كان في بدء خلقه مُنصهِراً انصهاراً كاملاً أو جزئياً، وكانت هذه الصهارة هي المصدر الرئيس لبخار الماء وعدد من الغازات التي اندفعت من داخل الأرض. وقد لعبت الأبخرة والغازات التي تصاعدت عبر كلٍ من فوهات البراكين وشقوق الأرض ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً مهماً في تكوين وإثراء كلٍ من الغلافين المائي والغازي للأرض، كما لعبت الصهارة الصخرية المندفعة من فوهات البراكين دوراً هاماً في تكوين الغلاف الصخري للأرض، ومجموع ذلك هو المقصود بالدحو.

رابعاً: دورة الماء حول الأرض:

شاءت إرادة الخالق العظيم أن يسكن في الأرض هذا القدر الهائل من الماء الذي يكفي جميع متطلبات الحياة على هذا الكوكب، ويحفظ التوازن الحراري على سطحه، كما يقلل من فروق درجة الحرارة بين كلٍ من الصيف والشتاء صوناً للحياة بمختلف أشكالها ومستوياتها.

وهذا القدر الذي يكوِّن الغلاف المائي للأرض قدر موزون بدقة بالغة، فلو زاد قليلاً لغطَّى كل سطحها، ولو قلَّ قليلاً لقَصُرَ دون الوفاء بمتطلبات الحياة عليها.

ولكي يحفظ ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذا الماء من التعفن والفساد حرَّكه في دورة مُعجِزة تُعرف باسم: دورة المياه الأرضية، تحمل في كل سنة ٣٨٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب من الماء بين الأرض وغلافها الغازي، ولما كانت نسبة بخار الماء في الغلاف الغازي للأرض ثابتة، فإن معدل سقوط الأمطار سنوياً على الأرض يبقى مُساوياً لمعدل البخر من على سطحها، وإن تباينت أماكن وكميات السقوط في كل منطقة حسب الإرادة الإلهية. ويبلغ متوسط سقوط الأمطار على الأرض اليوم ٨٥,٧ سنتيمتراً مكعباً في السنة، ويتراوح بين ١١,٤٥ متراً مكعباً في جزر هاواي وصفر في كثير من صحاري الأرض.

وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**ما من عام بأقل مطراً من عام**»[١].

وإذ يقول: «**قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[٢].

وتُبَخِّر أشعة الشمس من أسطح البحار والمحيطات ٣٢٠،٠٠٠ كيلومتراً مكعباً من الماء في كل عام، وأغلب هذا التبخر من المناطق الاستوائية حيث تصل درجة الحرارة في المتوسط إلى ٢٥ درجة مئوية، بينما تسقط على البحار والمحيطات سنوياً من مياه المطر ٢٨٤،٠٠٠ كيلومتراً مكعباً. ولما كان منسوب المياه في البحار والمحيطات يبقى ثابتاً في كل فترة زمنية محددة كالفترة الحالية فإن الفرق بين كمية التبخر من أسطح البحار والمحيطات وكمية ما يسقط عليها من مطر لا بد وأن يفيض إليها من القارات. وبالفعل فإن التبخر من أسطح

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (الحديث: ٦٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (الحديث: ٩٩١).

القارات يُقدَّر بستين ألف كيلومتر مكعب، بينما يسقط عليها سنوياً ستة وتسعون ألفاً من الكيلومترات المكعبة من ماء المطر، والفارق بين الرقمين بالإيجاب هو نفس الفارق بالسلب بين كمية التبخر وكمية المطر في البحار والمحيطات (٣٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب). فسبحان الذي ضبط دورة المياه حول الأرض بهذه الدقة الفائقة.

ويتم التبخر على اليابسة من أسطح البحيرات والمستنقعات، والبرك، والأنهار، وغيرها من المجاري المائية، ومن أسطح تجمعات الجليد، وبطريقة غير مباشرة من أسطح المياه تحت سطح الأرض، ومن عمليات تنفس وعرق كل من الإنسان والحيوان، ونتح النباتات، ومن فوهات البراكين.

ولما كان متوسط ارتفاع اليابسة هو ٨٢٣ متراً فوق مستوى سطح البحر، ومتوسط عمق المحيطات ٣٨٠٠ متر تحت مستوى سطح البحر، فإن ماء المطر الذي يفيض سنوياً من اليابسة إلى البحار والمحيطات ـ ويُقدَّر بستة وثلاثين ألفاً من الكيلومترات المكعبة ـ ينحدر مُولِّداً طاقة ميكانيكية هائلة، تشق الفجاج والسبل، وتفتت صخور الأرض، وتتكون منها الرسوبيات والصخور الرسوبية بما يتركز فيها من ثروات أرضية، ومُكوِّنة التربة الزراعية اللازمة لإنبات الأرض، ولو أنفقت البشرية كل ما تملك من ثروات مادية ما استطاعت أن تدفع قيمة هذه الطاقة التي سخرها لنا ربنا ـ ﷻ ـ من أجل تهيئة الأرض لكي تكون صالحة للعمران!!!.

خامساً: توزيع الماء على سطح الأرض:

تُقدَّر كمية المياه على سطح الأرض بنحو ١٣٦٠ مليون كيلومتر مكعب، أغلبها على هيئة ماء مالح في البحار والمحيطات (٩٧,٢٠٪)، بينما يتجمع الباقي (٢,٨٪) على هيئة الماء العذب بأشكاله الثلاثة الصلبة، والسائلة، والغازية؛ منها (٢,١٥٪ من مجموع مياه الأرض) على هيئة سُمْك هائل من الجليد يغطي المنطقتين القطبيتين الجنوبية والشمالية بسُمْك يقترب من الأربعة كيلومترات، كما

يغطي جميع القمم الجبلية العالية، والباقي يقدر بنحو ٠,٦٥٪ فقط من مجموع مياه الأرض يختزن أغلبه في صخور القشرة الأرضية على هيئة مياه تحت سطح الأرض، تليها في الكثرة النسبية مياه البحيرات العذبة، ثم رطوبة التربة الأرضية، ثم رطوبة الغلاف الغازي للأرض، ثم المياه الجارية في الأنهار وتفرعاتها.

وحينما يرتفع بخار الماء من الأرض إلى غلافها الغازي فإن أغلبه يتكثف في «**نطاق الرجع** وهو نطاق الطقس أو نطاق التغيرات المناخية»، الذي يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع يتراوح بين (١٦) و(١٧) كيلومتراً فوق خط الاستواء، وبين (٦) و(٨) كيلومترات فوق القطبين، ويختلف سُمْكه فوق خطوط العرض الوسطى باختلاف ظروفها الجوية، فينكمش إلى ما هو دون السبعة كيلومترات في مناطق الضغط المُنخفِض، ويمتد إلى نحو الثلاثة عشر كيلومتراً في مناطق الضغط المُرتَفع. وعندما تتحرك كتل الهواء الحار في نطاق الرجع من المناطق الاستوائية في اتجاه القطبين، فإنها تضطرب فوق خطوط العرض الوسطى فتزداد سرعة الهواء في اتجاه الشرق مُتأثِّراً باتجاه دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق.

ويضم **نطاق الرجع** ٦٦٪ من كتلة الغلاف الغازي للأرض، وتتناقص درجة الحرارة والضغط فيه باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى نحو ٦٠ درجة مئوية تحت الصفر في قمته المعروفة باسم **مستوى الركود الجوي**، وإلى عشر الضغط الجوي العادي عند سطح البحر فوق خط الاستواء؛ وذلك لتناقص الضغط بشكل ملحوظ عنده.

ونظراً لهذا الانخفاض الملحوظ في كلٍ من درجة الحرارة والضغط الجوي، وإلى الوفرة النسبية لنوى التكثف في هذا النطاق، فإن بخار الماء الصاعد من الأرض يتمدد تمدداً ملحوظاً مما يزيد من فقدانه لطاقته، وتبرده تبرداً شديداً، ويساعد على تكثفه وعودته إلى الأرض مطراً أو بَرَداً أو ثلجاً، وبدرجة أقل على هيئة ضباب وندى في المناطق القريبة من سطح الأرض.

سادساً: دحو الأرض معناه إخراج غلافيها المائي والغازي من داخلها:

ثبت أن كل ماء الأرض قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من داخل الأرض عن طريق الأنشطة البركانية المختلفة المُصاحِبة لتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض. كذلك فإن ثانيَ أكثر الغازات اندفاعاً من فوهات البراكين بعد بخار الماء هو ثاني أكسيد الكربون، وهو لازمة من لوازم عملية التمثيل الضوئي التي تقوم بتنفيذها النباتات الخضراء مُستخدِمة هذا الغاز مع الماء وعدداً من عناصر الأرض لبناء خلايا النبات وأنسجته، وزهوره، وثماره. ومن هنا عبر القرآن الكريم عن إخراج هذا الغاز المهم وغيره من الغازات اللازمة لإنبات الأرض من داخلها تعبيراً مجازياً بإخراج المرعى، لأنه لولا ثاني أكسيد الكربون ما أنبتت الأرض، ولا كستها الخضرة.

سابعاً: من معجزات القرآن: الإشارة إلى تلك الحقائق العلمية بلغة سهلة جزلة:

على عادة القرآن الكريم فإنه عبر عن تلك الحقائق الكونية المُتضمِّنة إخراج كلٍ من الغلافين المائي والغازي للأرض من داخل الأرض بأسلوب لا يفزع العقلية البدوية في صحراء الجزيرة العربية وقت تنزله، فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، والعرب في قلب الجزيرة العربية كانوا يرون الأرض تتفجر منها عيون الماء، ويرون الأرض تُكسى بالعشب الأخضر بمجرد سقوط المطر، ففهموا هذا المعنى الصحيح الجميل من هاتين الآيتين الكريمتين، ثم نأتي نحن اليوم فنرى في نفس الآيتين رؤية جديدة مفادها أن الله تعالى يمن على الأرض وأهلها وعلى جميع من يحيا على سطحها، أنه ﷻ قد هيأها لهذا العمران بإخراج كلٍ من أغلفتها الصخرية والمائية والغازية من جوفها، حيث تصل درجات الحرارة إلى آلاف الدرجات المئوية مما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وبكمال العلم، وتمام الحكمة، كما يشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقى هذا الوحي الخاتم بأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومُعلَّماً من قِبَل خالق السمٰوات والأرض.

(٢) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]

ضمن قسم بخمس من آيات الله في الخلق على حتمية وقوع العذاب بالمُكذِّبين بالدين الخاتم، وعلى أنه لا دافع أبداً لهذا العذاب عنهم، جاء هذا القسم القرآني العجيب في مطلع سورة «الطور»، وهي سورة مكية، شأنها شأن كل السور التي أُنزلت بمكة المكرمة، تدور محاورها الأساسية حول قضية العقيدة بأبعادها المُختلِفة من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وبالبعث والجزاء، وبالخلود في الآخرة، إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وتبدأ السورة بعد هذا القسم بمشهد من مشاهد الآخرة فيه استعراض لحال المكذبين برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهم يُدفعون من ظهورهم إلى نار جهنم دفعاً، وقد كانوا من المُكذِّبين بها!!

ثم تنتقل الآيات إلى استعراض حال المتقين، وهم يرفلون في جنات النعيم ثواباً لهم على الإيمان بالله، والخوف من عذابه!!

وتنتهي السورة بخطاب إلى النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ يحثه على المضي في دعوته إلى عبادة الله الخالق وحده (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد) مهما صادفه في ذلك من مصاعب في مواجهة الكم الهائل من مؤامرات المُتآمِرين، وكيد المُكذِّبين وعنتهم، الذين يتهددهم الله ـ تعالى ـ بما سوف يلقونه من صنوف العذاب يوم القيامة، بل بعذاب قبل ذلك في الحياة الدنيا. ويأتي مسك الختام بمواساة وتعضيد لرسول الله ﷺ في صورة تكريم لم يسبق لنبي من الأنبياء ولا لرسول من الرسل أن نال من الله تعالى تكريماً مثله، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مُوجهاً الخطاب إليه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

والآيات الست التي سبق بها القسم في مطلع سورة «الطور» هي على

التوالي: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ وهو الجبل المَكسو بالأشجار (والجبل غير المكسو بالخضرة لا يقال له طور، إنما يقال له جبل إذا كان شاهق الارتفاع بالنسبة للتضاريس حوله، ويسمى تَلًّا إذا كان دون ذلك، وتليه الأَكْمَة أو الرَّبْوَة أو النتوء الأرضي، ويليه النَّجْد أو الهَضَبَة، ويليه السَّهْل، من تضاريس الأرض) والمقصود في القسم القرآني هنا ـ على الأرجح ـ هو طور سيناء، الذي كلم الله ـ تعالى ـ عنده موسى عليه السلام، والذي نزلت عليه الألواح. وأقسم الله ﷻ بطور سيناء هنا تكريماً له، وتذكيراً للناس بما فيه من الآيات، والأنوار، والتجليات، والفيوضات الإلٰهية، مما جعله بقعة مُشرَّفة من بقاع الأرض لاختياره بإرادة الله ـ تعالى ـ وتجليه له.

والآية الثانية التي جاء بها القسم بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ وقيل فيه: إنه اللوح المحفوظ، وقيل: إنه القرآن الكريم الذي ختم الله ﷻ به وحي السماء، وقيل: هو التوراة التي تلقاها نبي الله موسى عليه السلام في الألواح التي أُنزلت على جبل الطور، وقيل: هو إشارة إلى جميع الكتب السماوية التي أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترة من الرسل بلغ عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر كما أخبرنا المصطفى ﷺ، لأن أصلها واحد، ورسالتها واحدة؛ كما قيل إنها صحائف أعمال العباد.

والقسم الثالث جاء بـ ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ والرق: هو جلد رقيق يُكتب فيه، وقد يشير إلى الورق الذي يكتب عليه، وإلى الألواح التي ينقش فيها؛ لأن الرق هو كل ما يُكتب فيه. والمنشور ـ أي المبسوط ـ غير المطوي، وغير المختوم عليه، بمعنى أنه مفتوح أمام الجميع، يستطيعون قراءته أو الاستماع إليه بغير حجر أو منع، فالقرآن الكريم يقرأه الخلق جميعهم، ويستمعون إليه بغير قيود أو حدود من أي نوع، وهكذا كانت الكتب السماوية التي سبقته بالنزول قبل ضياعها أو تحريفها، وفي النشر إشارة إلى سلامة الكتب السماوية من كل نقص وعيب.

وجاء القسم الرابع بصياغة ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ وهو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة ـ أي مقابلتها إلى أعلى على استقامتها ـ، وهو أيضاً حيال العرش

إلى أسفل منه وعلى استقامته، تعمِّره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً منهم، ثم لا يعودون إليه كما روى ابن عباس ﷺ، عن رسول الله ﷺ، وهو لأهل السماء كالكعبة المُشرَّفة لأهل الأرض، ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ما البيت المعمور؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «**فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم**»[1].

ويروى عنه ﷺ وصفاً مُشابِهاً للبيت المعمور في حديث الإسراء والمعراج، كما جاء في الصحيحين.

وجاء القسم الخامس بصياغة ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾، وفيه قيل: هو السماء القائمة بغير عمد مرئية، كما جاء على لسان الإمام علي ـ كرم الله تعالى وجهه ـ ووافقه على ذلك كثير من المفسرين، وإن قال الربيع بن أنس: «إنه العرش الذي هو سقف لجميع المخلوقات».

أما القسم بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ فقد تعددت آراء المفسرين فيه، كما سنرى في الأسطر القليلة التالية، ولكن قبل التعرض لذلك لا بد لنا من استعراض الدلالة اللغوية للفظي: البحر والمسجور.

المدلول اللغوي للبحر المسجور:

(البحر) في اللغة ضد البر، وقيل: إنه سمي بهذا الاسم لعمقه واتساعه، والجمع (أَبْحُر) و(بِحَار) و(بُحُور)، وكل نهر عظيم يسمى بحراً؛ لأن أصل البحر هو كل مكان واسع جامع للماء الكثير، وإن كانت لفظة (البحر) تُطلق في الأصل على الماء المالح دون العذب، كذلك سمت العرب كل مُتوسِّع في شيء (بحراً) حتى قالوا: للمتوسع في علمه (بحراً)، وللتوسع في العلم (تَبَحُّر)، وقالوا: فرس (بحر) أي واسع الخُطَى، سريع الجري، وقيل: ماء بحر، أي ملح (مالح)،

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر.

و(أَبْحَرَ) الماء أي ملح، و(أَبْحَرَ) الرجل أي ركب البحر، و(بَحَرَ) أذن الناقة، أي شقها شقاً واسعاً فشبهها بسعة البحر على وجه المجاز والمُبالَغة، ومنها سميت البَحِيْرَة: وهي الناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها، وتُطلق، فلا تُركب ولا يُحمل عليها، والبَحِيْرَة ابنة السائبة، وحكمها حكم أمها عند العرب في الجاهلية.

أما وصف البحر بصفة (المسجور) فالصفة مستمدة من الفعل (سَجَرَ) و(السَّجْرُ) تهييج النار، يقال: (سجر) التنور أي أوقد عليه حتى أحماه، و(السجور) هو ما يُسجر به التنور من أنواع الوقود، كما يقال: (سَجرَ) الماء النهر أي ملأه، ومنه (البحر المسجور) أي المملوء بالماء، المكفوف عن اليابسة، و(الساجور) خشبة تُجعل في عنق الكلب فيقال له كلب (مسوجر) أي محكوم، والمسوجر المُغلق المُحكم الإغلاق من كل شيء.

من شروح المفسرين للآية الكريمة:

في تفسير القسم القرآني بالبحر المسجور أشار ابن كثير ـ يرحمه الله ـ إلى قول الربيع بن أنس أنه: هو الماء الذي تحت العرش الذي يُنزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها أي أنه بحر من ماء خاص محبوس عند رب العالمين، ينزله ﷻ يوم البعث فينبت كل مخلوق بواسطة هذا الماء من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من حبتها على ما روي عن رسول الله ﷺ، وأضاف ابن كثير: وقال الجمهور هو هذا البحر، واختلف في معنى المسجور فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف، كما روي عن كل من الإمامين علي وابن عباس؛ وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يُسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير: أن القسم بـ ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ يعني المُرسل، وقال قتادة: المسجور: «المملوء»، واختاره ابن جرير، وقيل: المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها، قاله ابن عباس وبه يقول

السدي وغيره، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «**ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله أن ينفضح عليهم فيكفه الله عز وجل**»(١).

وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ في شرح دلالة القسم القرآني ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي المملوء، وذكرا أنه قول قتادة، وقالا: قال مجاهد: المُوقد أي الذي سيسجر يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

وقال صاحب الظلال ـ يرحمه الله ـ كلاماً مُشابِهاً يشير إلى أن البحر المسجور هو المملوء بالماء في الدنيا، أو المُتَّقد بالنار في الآخرة، أو أن هذا التعبير يسير إلى خلق آخر كالبيت المعمور يعلمه الله.

وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ـ غفر الله له ـ في تفسير قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ ما نصه: «أي المملوء ماء» يقال: سجر النهر، ملأه، وهو البحر المحيط، والمراد الجنس، وقيل الموقد ناراً عند قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، أي أوقدت ناراً، من سجر التنور يسجره سجراً، أحماه، وُصف البحر بذلك إعلاماً بأن البحار عند فناء الدنيا تحمى بنار من تحتها فتتبخر مياهها، وتندلع النار في تجاويفها وتصير كلها حمماً.

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم: «إن البحر المسجور هو المملوء»، وذكر صاحب صفوة التفاسير أنه الموقد ناراً يوم القيامة لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي: أُضرمت حتى تصير ناراً ملتهبة تتأجج وتحيط بأهل الموقف.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

البحر المسجور في منظور العلوم الحديثة:

من المعاني اللغوية للبحر المسجور هو المملوء بالماء، والمكفوف عن اليابسة، وهو معنى صحيح من الناحية العلمية صحة كاملة، كما أثبتته الدراسات العلمية في القرن العشرين، ومن المعاني اللغوية لهذا القسم القرآني المُبهِر أيضاً أن البحر قد أُوقد عليه حتى حمي قاعه فأصبح مسجوراً، وهو كذلك من الحقائق العلمية التي اكتشفها الإنسان في العقود المُتأخِّرة من القرن العشرين، والتي لم يكن لبشر إلمام بها قبل ذلك أبداً، وهذا ما نفصِّله في الأسطر التالية:

أولاً: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ بمعنى المملوء بالماء والمكفوف عن اليابسة:

الأرض هي أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته بحوالي١٣٦٠ إلى ١٣٨٥ مليون كيلومتر مكعب. وهذا الماء قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كله من داخل الأرض على هيئة بخار ماء اندفع من فوهات البراكين، وعبر صدوع الأرض العميقة ليصادف الطبقات العليا الباردة من نطاق التغيرات الجوية، والذي يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع حوالي ستة عشر كيلو متراً فوق خط الاستواء، وحوالي العشرة كيلومترات فوق قطبي الأرض، وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته. وهذا النطاق يحوي حوالي ثلثي كتلة الغلاف الغازي للأرض (٦٦٪) والمُقدَّرة بأكثر قليلاً من خمسة آلاف مليون مليون طن، وهو النطاق الذي يتكثف فيه بخار الماء الصاعد من الأرض، والذي تتكون فيه السحب، وينزل منه كل من المطر، والبَرَد، والثلج، وتتم فيه ظواهر الرعد والبرق، وتتكون العواصف والدوَّامات الهوائية وغير ذلك من الظواهر الجوية، ولولا تبرد هذا النطاق مع الارتفاع ما عاد إلينا بخار الماء الصاعد من الأرض أبداً. وحينما عاد إلينا بخار الماء مطراً، وثلجاً، وبَرَداً، انحدر على سطح الأرض ليشق له عدداً من المجاري المائية، ثم فاض إلى منخفضات الأرض الواسعة ليكوِّن البحار والمحيطات، وبتكرار عملية البخر من أسطح تلك البحار

والمحيطات، ومن أسطح اليابسة بما عليها من مختلف صور التجمعات المائية والكائنات الحية، بدأت دورة المياه حول الأرض من أجل التنقية المُستمِرَّة لهذا الماء ولكي يتم تلطيف الجو، وشق الفجاج والسبل، وتفتيت الصخور، وتسوية سطح الأرض، وتكوين التربة، وتركيز عدد من الثروات المعدنية، وغير ذلك من المهام التي أوكلها الخالق لتلك الدورة المُعجِزة التي تحمل ٣٨٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب من ماء الأرض إلى غلافها الجوي سنوياً، لتردَّها إلى الأرض ماءً طهوراً، منها ٣٢٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب تتبخر من أسطح البحار المحيطات، ٦٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب من أسطح اليابسة، يعود منها ٢٨٤,٠٠٠ كيلومتر مكعب إلى البحار والمحيطات، و٩٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب إلى اليابسة التي يفيض منها ٣٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب من الماء إلى البحار والمحيطات، وهو نفس مقدار الفارق بين البخر والمطر من وإلى البحار والمحيطات.

هذه الدورة المُحكَمة للمياه حول الأرض أدَّت إلى خزن أغلب ماء الأرض في بحارها ومحيطاتها (حوالي ٩٧,٢٪)، وإبقاء أقله على اليابسة (حوالي ٢,٨٪)، وبهذه الدورة للماء حول الأرض تملح ماء البحار والمحيطات، وبقيت نسبة ضئيلة على هيئة ماء عذب على اليابسة، وحتى هذه النسبة الضئيلة من ماء الأرض العذب قد حُبس أغلبها (من ٢,٠٥٢ ٪ إلى ٢,١٥٪) على هيئة سُمْك هائل من الجليد فوق قطبي الأرض، وفي قمم الجبال، والباقي مُختزَن في الطبقات المسامية والمُنفذة من صخور القشرة الأرضية على هيئة ماء تحت سطحي (حوالي ٠,٢٧٪ إلى ٠,٥٠٪)، وفي بحيرات الماء العذب (حوالي ٠,٣٣٪)، وعلى هيئة رطوبة في تربة الأرض (من ٠,١١٪ إلى ٠,١٨٪)، ورطوبة في الغلاف الغازي للأرض تتراوح بين (٠,٠٠١٪ إلى ٠,٠٣٦٪)، وما يجري في الأنهار والجداول (حوالي ٠,٠٤٧٪).

وتوزيع ماء الأرض بهذه النسب التي اقتضتها حكمة الله الخالق قد تم بدقة بالغة بين البيئات المختلفة بالقدر الكافي لمُتطلَّبات الحياة في كل بيئة من تلك البيئات، وبالأقدار الموزونة التي لو اختلَّت قليلاً بزيادة أو نقص لغمرت الأرض

وغطَّت سطحها بالكامل، أو انحسرت تاركة مساحات هائلة من اليابسة، ولقصرت دون متطلبات الحياة عليها.

ومن هذا القبيل يحسب العلماء أن الجليد المُتجمِّع فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال المُرتفِعة فوق سطحها إذا بدأ في الانصهار ـ وهذا لا يحتاج إلا إلى مجرد الارتفاع في درجة حرارة صيف تلك المناطق بحوالي ٦,- درجة مئوية ـ، وإذا حدث ذلك فإن كم الماء الناتج سوف يؤدي إلى رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات إلى الحد الذي يغرق أغلب المناطق الآهلة بالسكان والمُمتدَّة في دالات الأنهار وحول شواطئ تلك البحار والمحيطات. وليس هذا من قبيل الخيال العلمي، فقد مرت بالأرض فترات كانت مياه البحار فيها أكثر غمراً للياسة من حدود شواطئها الحالية، كما مرت فترات أخرى كان منسوب الماء في البحار والمحيطات أكثر انخفاضاً من منسوبها الحالي مما أدى إلى انحسار مساحة البحار والمحيطات، وزيادة مساحة اليابسة، والضابط في الحالين كان كم الجليد المُتجمِّع فوق اليابسة، فكلما زاد كم الجليد انخفض منسوب الماء في البحار والمحيطات فانحسرت عن اليابسة التي تزيد مساحتها زيادة ملحوظة، وكلما قل كم الجليد ارتفع منسوب المياه في البحار والمحيطات وطغت على اليابسة التي تتضاءل مساحتها تضاؤلاً ملحوظاً.

من هنا كان تفسير القسم القرآني بـ ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ بأن الله تعالى يمن علينا ـ وهو صاحب الفضل والمنة ـ بأنه ملأ منخفضات الأرض بماء البحار والمحيطات، وحجز هذا الماء عن مزيد من الطغيان على اليابسة منذ خلق الإنسان، وذلك بحبس كميات من هذا الماء في هيئات مُتعدِّدة أهمها ذلك السُمْك الهائل من الجليد المُتجمِّع فوق قطبي الأرض وعلى قمم الجبال، والذي يصل إلى أربعة كيلومترات في قطب الأرض الجنوبي، وإلى ثلاثة آلاف وثمانمائة من الأمتار في القطب الشمالي، ولولا ذلك لغطى ماء الأرض أغلب سطحها، ولما بقيت مساحة كافية من اليابسة للحياة بمختلف أشكالها الإنسانية، والحيوانية، والنباتية، وهي إحدى آيات الله البالغة في الأرض وفي إعدادها لكي تكون صالحة للعمران.

من هنا كان تفسير القسم بـ ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ بمعنى المملوء بالماء، المكفوف عن اليابسة، ينطبق مع عدد من الحقائق العلمية الثابتة التي تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، وتشهد لسيدنا محمد ﷺ بالنبوة وبالرسالة.

ثانياً: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ بمعنى القائم على قاع أحمته الصهارة الصخرية المُندفِعة من داخل الأرض فجعلته شديد الحرارة:

في العقود المُتأخِّرة من القرن العشرين تم اكتشاف حقيقة تمزُّق الغلاف الصخري للأرض بشبكة هائلة من الصدوع العملاقة المزدوجة، والتي تكوِّن فيما بينها ما يعرف باسم أودية الخسف أو الأغوار، وأن هذه الأغوار العميقة تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة، ويشبهها العلماء باللحام على كرة التنس ـ مع فارق التشبيه ـ، وتمتد هذه الأغوار في كافة الاتجاهات لعشرات الآلاف من الكيلومترات، ولكنها تنتشر أكثر ما تنتشر في قيعان محيطات الأرض، وفي قيعان عدد من بحارها، ويتراوح عمق الصدوع المُشكِّلة لتلك الأغوار بين ٦٥ كيلومتراً، و٧٠ كيلومتراً تحت قيعان البحار والمحيطات، وبين ١٠٠ و١٥٠ كيلومتراً على اليابسة ـ أي في صخور القارات ـ، وتعمل هذه الشبكة المتصلة من الصدوع على تمزيق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتقطيعه إلى عدد من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يسميه العلماء باسم: **نطاق الضعف الأرضي**، وهو نطاق لدن، عالي الكثافة واللزوجة، تتحرك بداخله تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى حيث تتبرد وتعاود النزول إلى أسفل، وهي بتلك الحركة الدائبة تدفع بكل لوح من ألواح الغلاف الصخري للأرض إلى التباعد عن اللوح المجاور في أحد جوانبه (في ظاهرة تسمى **ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات**)، ومُصطدِماً في الجانب المُقابِل باللوح الصخري المُجاوِر ليكوِّن سلسلة من السلاسل الجبلية، ومُنزلقاً عن الألواح المُجاوِرة في الجانبين الآخرين.

وباستمرار تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض تتسع قيعان البحار والمحيطات باستمرار عند خطوط التباعد بينها، وتندفع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية لتساعد على دفع جانبي

المحيط يمنة ويسرة، وتملأ المسافات الناتجة بالصهارة الصخرية المُندفِعة من نطاق الضعف الأرضي على هيئة ثورات بركانية عارمة تحت الماء، تسجر قيعان جميع محيطات الأرض، وقيعان أعداد من بحارها، وتجدد مادتها الصخرية باستمرار.

وقد أدى هذا النشاط البركاني فوق قيعان كل المحيطات، وفوق قيعان عدد من البحار النشطة إلى تكون سلاسل من الجبال في أواسط المحيطات تتكون في غالبيتها من الصخور البركانية، وقد ترتفع قممها في بعض الأماكن فوق مستوى سطح الماء على هيئة أعداد من الجزر البركانية مثل جزر كل من إندونيسيا، ماليزيا، الفلبين، اليابان، هاواي وغيرها، وفي المقابل تصطدم ألواح الغلاف الصخري عند حدودها المُقابِلة لمناطق اتساع قيعان البحار والمحيطات، ويؤدي هذا التصادم إلى اندفاع قيعان المحيطات تحت كتل القارات وانصهارها بالتدريج مما يؤدي إلى تكون جيوب عميقة عند التقاء قاع المحيط بالكتلة القارية تتجمع فيها كميات هائلة من الصخور الرسوبية والنارية والمُتحوِّلة التي تطوى وتتكسر لترتفع على هيئة السلاسل الجبلية على حواف القارات مثل سلسلة جبال «الأنديز» في غربي أمريكا الجنوبية، وهنا يستهلك قاع المحيط بالتدريج تحت الكتلة القارية. وإذا استمرت عملية توسع قاع المحيط فإن هذا القاع قد يستهلك بأكمله تحت القارة مما يؤدي إلى تصادم قارتين ببعضهما، وينشأ عن هذا التصادم أعلى السلاسل الجبلية من مثل جبال «الهيمالايا» التي نتجت عن اصطدام الهند بالقارة الآسيوية بعد استهلاك قاع المحيط الذي كان يفصل بينهما بالكامل في أزمنة قديمة.

ويصاحب كلٌّ من عمليتي توسع قاع المحيط في محوره الوسطي، واصطدامه عند أطرافه بعدد من الهزات الأرضية، والثورات والطفوح البركانية. ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من أربعة وستين ألفاً من الكيلومترات في الطول، بينما يبلغ طول الصدوع العميقة التي اندفعت منها الطفوح البركانية لتكوِّن تلك السلاسل الجبلية في أواسط المحيطات أضعاف هذا الرقم، وتتكون

هذه السلاسل أساساً من الصخور البركانية المُختلِطة بالقليل من الرسوبيات البحرية، وتحيط كل سلسلة من هذه السلاسل المُندفِعة من قاع المحيط بواد خسيف (غور) مُكوَّن بفعل الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين خمسة وستين كيلومتراً وسبعين كيلومتراً ليخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل ويصل إلى نطاق الضعف الأرضي الذي تندفع منه الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجة حرارة تزيد عن الألف درجة مئوية لتسجر قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان عدد من بحارها النشطة باستمرار، ومع تجدد اندفاع الصهارة الصخرية عبر مستويات هذه الصدوع العملاقة يتسع قاع المحيط باستمرار، وتتجدد مادته بدفع الصخور القديمة في اتجاه شاطئ المحيط يمنة ويسرة، ليحل محلها أحزمة أحدث عمراً تتكون من تجمد تلك الصهارة الجديدة، وتترتب بصورة مُتوازِية على جانبي أغوار المحيطات والبحار، ويهبط كل جانب من جانبي قاع المحيط المُتسِع بنصف معدل اتساعه الكلي تحت كل قارة من القارتين أو القارات المحيطة بشاطئيه، وبذلك يمتلئ محور المحيط بالصهارة الصخرية الحديثة المُندفِعة عبر مستويات الصدوع المُمزِّقة لقاعه فتسجره، بينما تندفع الصخور الأقدم بالتدريج في اتجاه الشاطئين، حيث توجد أقدم صخور ذلك القاع، والتي تستهلك باستمرار تحت القارات المحيطة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان عدد من بحارها ـ مثل البحر الأحمر ـ توجد أيضاً على اليابسة ولكن بنسب أقل منها فوق قيعان البحار والمحيطات، وتعمل على تكوين عدد من الأغوار ـ الأودية الخسيفة ـ، والبحار الطولية ـ مثل أغوار شرقي أفريقيا والبحر الأحمر ـ التي تعمل على تفتيت الكتل القارية باتساعها التدريجي لتتحول تلك البحار الطولية مثل البحر الأحمر إلى بحار أكبر، ثم إلى محيطات تفصل بين الكتلة القارية التي كانت متصلة على هيئة قارة واحدة. وتُحاط تلك الخسوف القارية العملاقة بعدد من القمم البركانية السامقة مثل جبل «أرارات» في شرقي تركيا (٥١٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان «إتنا» في شمال شرقي صقلية (٣٣٠٠

متر)، ومخروط بركان «فيزوف» في خليج نابولي بإيطاليا (١٣٠٠ متر)، وجبل (كيليمنجارو) في تنجانيقا (٥٩٠٠ متر)، وجبل كينيا في جمهورية كينيا (٥١٠٠ متراً فوق مستوى سطح البحر).

بذلك ثبت لكل من علماء الأرض والبحار ـ بالأدلة المادية الملموسة ـ أن كل محيطات الأرض ـ بما في ذلك المحيطان المتجمدان الشمالي والجنوبي ـ، وأن أعداداً من بحارها ـ مثل البحر الأحمر ـ، قيعانها مسجرة تسجيراً حقيقياً بالصهارة الصخرية المُندفِعة بملايين الأطنان من داخل الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتصل إلى نطاق الضعف الأرضي. وتتركز هذه الشبكة من الصدوع العملاقة أساساً في قيعان البحار والمحيطات، وأن كم المياه في تلك الأحواض العملاقة ـ على ضخامته ـ (والذي يغطي ثلاثة أرباع سطح الأرض بعمق متوسط في المحيطات يصل إلى أربعة كيلومترات) لا يستطيع أن يطفئ جذوة الصهارة الصخرية المُندفِعة من داخل الأرض إطفاءً كاملاً، وأن هذه الجذوة ـ على شدة حرارتها ـ (حوالي ألف درجة مئوية) لا تستطيع أن تبخر هذا الماء بالكامل، وأن هذا الاتزان الدقيق بين الأضداد من الماء والحرارة العالية هو من أكثر ظواهر الأرض إبهاراً للعلماء في زماننا، وهي حقيقة لم يتمكن الإنسان من اكتشافها إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين.

ومن الغريب أن رسول الله ﷺ هذا النبي الأمي ـ الذي لم يركب البحر في حياته الشريفة مرة واحدة، فضلاً عن الغوص إلى أعماق البحار ـ قال في حديث شريف أخرجه كل من الأئمة أبو داود في سننه، والبيهقي في سننه، وابن شيبة في مصنفه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ما نصه: «**لا يركب البحر إلا حاج، أو معتمر، أو غازٍ في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً**»[١].

(١) رواه أبو داود في سننه والبيهقي.

وجاء الحديث في مصنف ابن شيبة بالنص التالي: «**إن تحت البحر ناراً، ثم ماء، ثم نار**».

ويعجب الإنسان المُتبصِّر لهذا السبق في كلٍ من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الأرض التي لم يتوصل الإنسان إلى إدراكها إلا في نهايات القرن العشرين. هذا السبق الذي لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً غير الله الخالق، الذي أنزل هذا القرآن الكريم بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وعلَّم هذا الرسول الخاتم ﷺ من حقائق هذا الكون ما لم يكن لأحد من الخلق إلمام به قبل العقود الثلاثة المُتأخِّرة من القرن العشرين، لكي تبقى هذه الومضات النورانية في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ شهادات مادية ملموسة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي حفظه ـ تعالى ـ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، في نفس لغة الوحي ـ اللغة العربية ـ، وحفظه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، دون أدنى تغيير أو تبديل أو تحريف، وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظه تعهداً مطلقاً حتى يبقى إلى أن يشاء الله شاهداً على الخلق أجمعين بأنه كلام رب العالمين، وشاهداً للرسول الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ بأنه كان موصولاً بالوحي، ومُعلَّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض. فسبحان الذي أنزل في مُحكَم كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين هذا القسم القرآني بالبحر المسجور، وسبحان الذي علَّم خاتم أنبيائه ورسله بهذه الحقيقة فقال قولته الصادقة: «**إن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً**». وسبحان الذي أكد على صدق القرآن الكريم، وعلى صدق هذا النبي الخاتم في كل ما رواه عن ربه، فأنزل في محكم كتابه قوله الحق: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله ﷻ مُخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبإ: ٦].

وقوله ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [صٓ: ٨٧، ٨٨].

وقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وقوله ـ تبارك اسمه ـ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

* * *

(٣) ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ...﴾ [النور: ٤٠]

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في أواخر الثلث الثاني من سورة «النور»، وهي سورة مدنية، وآياتها أربع وستون، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أن الله ـ تعالى ـ هو نور السمٰوات والأرض. وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يهدي لنوره من يشاء، وأن «. . .من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور».

ويدور المحور الرئيس للسورة حول عدد من التشريعات الإلٰهية الضابطة لسلوك المسلم في كل من حياته الخاصة والعامة، والحاكمة للعلاقات في داخل الأسرة المسلمة صوناً لحرماتها.

الدلالة العلمية للآية الكريمة:

تشير هذه الآية الكريمة إلى الظلمة التامة فوق قيعان البحار العميقة والمحيطات، مؤكدة أنها ظلمة مركبة، يلعب كل من السحب، والأمواج

السطحية، والأمواج الداخلية دوراً أساسياً في إحداثها، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين.

ولما كانت الشمس هي مصدر الحرارة والضوء ومختلف صور الطاقة الأخرى (فيما عدا الطاقة النووية) على سطح الأرض وعلى أسطح غيرها من أجرام المجموعة الشمسية، كان لزاماً علينا الرجوع إلى المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس للتعرف على الحواجز التي يمكن أن تعترض أشعة الشمس في طريق وصولها إلى الأرض ومن أهمها الغلاف الغازي للأرض، خاصة جزأه السفلي (نطاق المتغيرات المناخية أو نطاق الرجع) وما به من سحب.

الظلمات فوق قيعان كل من البحار العميقة والمحيطات

(١) الظلمة الأولى تسببها السحب:

تتكون الأشعة الصادرة من الشمس من كل الموجات الكهرومغناطيسية ابتداء من الأشعة الراديوية إلى الأشعة السينية إلا أن الغالب عليها هو الضوء المرئي وكل من الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية، بالإضافة إلى بعض الجسيمات الأولية المتسارعة مثل الإلكترونات، وأغلب الأشعة فوق البنفسجية يردها إلى الخارج نطاق الأوزون. وعند وصول بقية أشعة الشمس إلى الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض فإن السحب تعكس وتشتت نحو (٣٠٪) منها.

وتمتص السحب وما بها من بخار الماء وجزيئات الهواء وهباءات الغبار وغيرها من نوى التكثيف الأخرى حوالي (١٩٪) من تلك الأشعة الشمسية المارة من خلالها، وعلى ذلك فإن السحب تحجب بالانعكاس والتشتيت والامتصاص حوالي (٤٩٪) من أشعة الشمس، فتحدث قدراً من الظلمة النسبية على سطح الأرض بما في ذلك اليابسة وأسطح البحار والمحيطات.

(٢) الأمواج السطحية في كل من البحار والمحيطات تسبب الظلمة الثانية:

عند وصول ما تبقى من أشعة الشمس إلى أسطح البحار والمحيطات فإن حوالي ٣٥٪ من الأشعة تحت الحمراء فيها تستهلك في تبخير الماء، من أجل تكوين السحب، وفي عمليات التمثيل الضوئي. التي تقوم بها النباتات البحرية.

أما ما يصل إلى سطح البحار والمحيطات مما تبقى من الأشعة المرئية (أو الضوء الأبيض). فإن الأمواج السطحية للبحار تعكس ٥٪ أخرى منها، فتحدث قدراً آخر من الظلمة النسبية في البحار والمحيطات.

توهن (ضعف) ضوء الشمس المرئي بمروره في ماء البحار والمحيطات:

الجزء المرئي من أشعة الشمس الذي ينفذ إلى كتل الماء في البحار والمحيطات يتعرض لعمليات كثيرة من الانكسار، والتحلل إلى الأطياف المختلفة والامتصاص بواسطة كل من جزيئات الماء، وجزيئات الأملاح المذابة فيه، وبواسطة المواد الصلبة العالقة به، وبما يحيا فيه من مختلف صور الأحياء، وبما تفرزه تلك الأحياء من مواد عضوية، ولذلك يضعف الضوء المار في الماء بالتدريج مع العمق.

والطيف الأحمر هو أول ما يمتص من أطياف الضوء الأبيض ويتم امتصاصه بالكامل على عمق لا يكاد يتجاوز عشرة أمتار، ويليه في الامتصاص الطيف البرتقالي ثم الطيف الأصفر والذي يتم امتصاصه بالكامل على عمق لا يتجاوز الخمسين متراً، ويلي ذلك الطيف الأخضر والذي يتم امتصاصه بالكامل على عمق مائة متر في المتوسط، ويستمر الطيف الأزرق بعد ذلك ليتم امتصاصه على عمق يزيد قليلاً على المائتي متر، ولذلك يبدو ماء البحار والمحيطات باللون الأزرق لتشتت هذا الطيف من أطياف الضوء الأبيض في المائتي متر العليا من تلك الكتل المائية.

وبذلك فإن معظم موجات الضوء المرئي تمتص على عمق مائة متر تقريباً من مستوى سطح الماء في البحار والمحيطات، ويستمر ١٪ منها إلى عمق ١٥٠

متراً، و١٠,- ٪ إلى عمق ٢٠٠ متر في الماء الصافي الخالي من العوالق.

وعلى الرغم من السرعة الفائقة للضوء (حوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية في الفراغ، وحوالي (٢٢٥,٠٠٠) كيلومتر في الثانية في الأوساط المائية)، فإنه لا يستطيع أن يستمر في ماء البحار والمحيطات لعمق يزيد على الألف متر، فبعد مائتي متر من أسطح تلك الأوساط المائية يبدأ الإظلام شبه الكامل حيث لا ينفذ بعد هذا العمق سوى أقل من ٠,١٠٪ من ضوء الشمس، ويظل هذا القدر الضئيل من الضوء المرئي يتعرض للانكسار والتشتت والامتصاص حتى يتلاشى تماماً على عمق لا يكاد يصل إلى كيلومتر واحد تحت مستوى سطح البحر. حيث لا يبقى من أشعة الشمس الساقطة على ذلك السطح سوى واحد من عشرة تريليون جزء منها، ولما كان متوسط أعماق المحيطات يقدر بنحو ٣٧٩٥ متراً، وأن أقصاها عمقاً يتجاوز الأحد عشر كيلومتراً بقليل (١١,٤٣٠ متراً) وبين هذين الحدين تتراوح أعماق البحار والمحيطات بين أربعة وخمسة كيلومترات في المتوسط، وبين ثمانية وعشرة كيلومترات في أكثرها عمقاً. فإن معنى ذلك أن أعماق تلك المحيطات تغرق في ظلام دامس.

(٣) الأمواج الداخلية هي سبب الظلمة الثالثة فوق قيعان كل من البحار العميقة والمحيطات:

بالإضافة إلى تحلل الضوء الأبيض عند مروره في ماء البحار والمحيطات فإن السبب الرئيس في إحداث الإظلام التام فوق قيعان البحار اللجية (أي الغزيرة الماء لعمقها حتى لا يكاد يدرك لها قاع، والمتلاطمة الأمواج لقول العرب: التج البحر أي: تلاطمت أمواجه) هي الأمواج الداخلية في تلك البحار العميقة وغير المتجانسة.

وتتكون هذه الأمواج الداخلية بين كتل الماء ذات الكثافات المختلفة، وتختلف كثافة الماء في البحار العميقة والمحيطات باختلاف كل من درجة حرارته، ونسبة الأملاح المذابة فيه، وتتمايز كتل الماء في تلك المسطحات

المائية الكبيرة اختلافاً أفقياً بتمايز مناطقها المناخية، ورأسياً بتمايز كثافتها. وتتحرك التيارات المائية أفقياً بين مساحات شاسعة من خطوط العرض فتكتسب صفات طبيعية جديدة من درجات الحرارة والملوحة بسبب تغير معدلات التسخين أو التبريد، ومعدلات البخر أو سقوط الأمطار، مما يضطرها إلى التحرك رأسياً كذلك.

وتمايز الماء في البحار العميقة والمحيطات تمايزاً رأسياً إلى كتل سطحية، وكتل متوسطة العمق، وكتل عميقة شبه قطبية، وكتل شديدة العمق حول قطبية، ولا يتمايز الماء إلى تلك الكتل إلا في البحار شديدة العمق، ومن هنا فإن الأمواج الداخلية لا تتكون إلا في مثل تلك البحار العميقة، ومن هنا أيضاً كان التحديد القرآني بالوصف «بحر لجي» إعجازاً غير مسبوق.

وتتكون الأمواج الداخلية عند الحدود الفاصلة بين كل كتلتين مائيتين مختلفتين في الكثافة، وهي أمواج ذات أطوال وارتفاعات تفوق أطوال وارتفاعات الأمواج السطحية بمعدلات كبيرة، حيث تتراوح أطوالها بين عشرات ومئات الكيلومترات، وتصل سعتها (أي ارتفاع الموجة) إلى مائتي متر، وتتحرك بسرعات تتراوح بين ٥٠ و١٠٠ سنتيمتر في الثانية لمدد تتراوح بين أربع دقائق وخمس وعشرين ساعة.

وعلى الرغم من ذلك فهي أمواج لا يمكن رؤيتها بطريقة مباشرة، وإن أمكن إدراك حركتها بأجهزة ميكانيكية وذلك بواسطة عدد من القياسات للاضطرابات التي تحدثها تلك الأمواج الداخلية، وهذا أيضاً مما يجعل الإشارة القرآنية إليها إعجازاً لا ينكره إلا جاحد.

ويبدأ تكون الأمواج الداخلية على عمق٤٠ متراً تقريباً من مستوى سطح الماء في المحيطات حيث تبدأ صفات الماء فجأة في التغير من حيث كثافتها ودرجة حرارتها، وقد تتكرر على أعماق أخرى كلما تكرر التباين بين كتل الماء في الكثافة، وعجز الإنسان في زمن الوحي ولقرون متطاولة من بعده عن الغوص